# المُغْنِي في التَّفْسِيرِ

## المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

# «المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

## المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

### [تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ


كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

**د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ**

**د/ آلَاء رِضَا**


غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

# المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

## سُورَةُ الفَتْحِ، سُورَةُ الحُجُراتِ، سُورَةُ ق

## (المجلَّدُ الرَّابِعُ والثَّلاثون)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.
لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

# تَفْسِيرُ
# سُورَةِ الفَتْحِ

# سُورةُ الفَتْحِ

## سُورةُ الفَتْحِ

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفتح)،[1] وممَّا يدُلُّ على ذلك:

1- عن عبْدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((قرَأَ رسولُ اللهِ - ﷺ - عامَ الفَتحِ في مَسيرٍ له- سُورةَ الفَتحِ على راحِلَتِه، فرَجَّعَ في قِراءَتِه))[2].[3]

2- عن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أيُّها النَّاسُ اتَّهِموا أنفُسَكم؛ فإنَّا كُنَّا مع رَسولِ اللهِ - ﷺ - يومَ الحُدَيبيَةِ، ولوْ نَرى قِتالًا لقاتَلْنا...)) إلى أنْ قال: ((فنَزَلَتْ سُورةُ الفَتحِ، فقَرَأَها رَسولُ اللهِ - ﷺ - على عُمَرَ إلى آخِرِها)).[4]

---

(1) وسُمِّيَتْ سورةَ الفتْحِ؛ لقَولِه تعالى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا [الفتح: 1].
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (432/1).

(2) التَّرجيعُ: تَرديدُ الصَّوتِ في الحَلْقِ، والجهرُ بالقَولِ مُكَرَّرًا بعْدَ خَفائِه.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (584/8) و(515/13).
ويُنظر أيضًا: ((النهاية)) لابن الأثير (202/2).

(3) أخرجه البخاريُّ (4281)، ومسلمٌ (794) واللفظ له.

(4) أخرجه البخاريُّ (3182) واللفظ له، ومسلمٌ (1785).

## فَضائلُ السُّورةِ وخَصائصُها:

عن أَسْلَمَ العَدويِّ مَولَى عمرَ:[5] ((أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ -كان يَسيرُ في بعضِ أسْفارِه، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ معه لَيْلًا، فسَأله عُمَرُ بنُ الخطَّابِ عن شَيءٍ، فلَمْ يُجِبْه رَسولُ اللهِ - ﷺ -، ثمَّ سَأله فلَمْ يُجِبْه، ثمَّ سَأله فلَمْ يُجِبْه، وقال عُمَرُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[6] يا عُمرُ! نَزَرْتَ رسولَ اللهِ - ﷺ -[7] ثَلاثَ مرَّاتٍ، كلُّ ذلك لا يُجيبُكَ! قال عُمرُ: فحرَّكْتُ بعيري، ثمَّ تقدَّمْتُ أمامَ المسلمينَ، وخَشيتُ أنْ ينزِلَ فِيَّ قُرآنٌ، فما نَشِبْتُ[8] أنْ سَمِعتُ صارخًا يَصرُخُ بي، قال: فقلْتُ: لقدْ خَشيتُ أنْ يَكونَ نزَلَ فِيَّ قرآنٌ!

---

ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٦٤) أنّ: «هذه السورة نزلت على رسول الله - ﷺ - مُنصَرَفه مِن الحُدَيبية، وفي ذلك أحاديث كثيرة عن أنس وابن مسعود وغيرهما تقتضي صحته، وهي بهذا في حكم المدني».

ثم ذكر قول ابن عباس أنها نزلت بالمدينة، ثم رجَّح -مستندًا إلى السنة- قائلًا: «والأول أصحّ، ويشبه أنّ منها بعضًا نزل بالمدينة، وأما صدر السورة ومعظمها فكما قلنا، ويقضي بذلك قول النبي - ﷺ - لعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وهما في تلك السَّفرة: «لقد أُنزلت عليَّ سورةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا بما فيها»».

(5) قال ابن حجر: (هذا السِّياقُ صورتُه الإرسالُ؛ لأنَّ أسلم لم يُدرِكْ زمانَ هذه القصَّةِ، لكنَّه محمولٌ على أنَّه سمِعه مِن عمرَ بدليلِ قولِه في أثنائِه: قال عمرُ: فحرَّكتُ بَعيري...

إلخ).

((فتح الباري)) (583/8).

(6) الثَّكل والثُّكل: فِقدانُ المرأةِ ولَدَها.

وقدْ دعا عُمَرُ على نفْسِه بسَببِ ما وقَع منه مِن الإلحاحِ.

ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ لَمْ يُرِدِ الدُّعاءَ على نفْسِه حقيقةً، وإنَّما هي مِن الألفاظِ الَّتي تُقالُ عندَ الغضبِ مِن غيرِ قَصدِ معناها.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (583/8).

(7) نَزَرتَ رسولَ اللهِ: أي: ألحَحْتُ عليه في المسألةِ.

يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (3/ 1732)، ((فتح الباري)) لابن حجر (194/1).

(8) فما نشِبْتُ: أي: لم أتعلَّقْ بشَيءٍ غيرَ ما ذكَرْتُ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (583/8).

وجِئتُ رسولَ اللهِ - ﷺ -، فسَلَّمْتُ عليه، فقال: لقدْ أُنزِلَتْ علَيَّ اللَّيلةَ سُورةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إليَّ ممَّا طلَعَتْ عليه الشَّمْسُ،[9] ثمَّ قرأ: إنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)).[10]

سُورةُ الفتْحِ مَدَنيَّةٌ،[11] نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ.[12]

## مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

1- تَبشيرُ الرَّسولِ - ﷺ - وأصحابِه بألْوانٍ مِنَ البِشاراتِ.

2- التَّعريفُ بالمُنافِقينَ والكافِرينَ، وبَيانُ حَقيقتِهم.

3- بيانُ كثيرٍ مِن مَظاهِرِ فضْلِ اللهِ ورَحمتِه بعِبادِه المؤمِنينَ.

---

(9) أي: لِما فيها من البِشارةِ بالمغفرةِ والفتْحِ المبينِ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (8/583).

(10) أخرجه البخاريُّ (4177) و(4833) و(5012).

(11) قال ابنُ كثير: (نزَلَتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ لَمَّا رجَعَ رسولُ اللهِ - ﷺ - مِنَ الحُدَيْبِيَةِ في ذي القَعدةِ مِن سَنةِ سِتٍّ مِنَ الهِجرةِ، حينَ صَدَّهُ المشركونَ عن الوُصولِ إلى المسجدِ الحرامِ لِيَقْضيَ عُمْرتَه فيه، وحالُوا بيْنَه وبيْن ذلك، ثمَّ مالُوا إلى المصالحَةِ والمُهادَنةِ، وأنْ يَرجِعَ عامَه هذا، ثمَّ يأتيَ مِن قابِلٍ، فأجابَهُم إلى ذلك على تَكَرُّهٍ مِن جماعةٍ مِنَ الصَّحابةِ؛ منهم عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضيَ اللهُ عنه).
((تفسير ابن كثير)) (7/325).

(12) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوْزي، والقُرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقَاعيُّ.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (4/125)، ((تفسير القرطبي)) (16/259)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/432)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (2/492).

## مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- بِشارةُ الرَّسولِ - ﷺ - بالفَتحِ المُبينِ، ووَعْدُه بالمغفرةِ وإتمامِ النِّعمةِ عليه، وهِدايتِه ونَصْرِه.

2- وَعْدُ المؤمنينَ، ووَعيدُ الكافِرينَ والمُنافِقينَ.

3- بيانُ وَظيفةِ النَّبيِّ - ﷺ -، وتَوجيهُ المؤمنينَ إلى واجِبِهم بعدَ تَبليغِهِمُ الرِّسالةَ.

4- الثَّناءُ على الَّذينَ بايَعوا رسولَ اللهِ - ﷺ -، ووَعْدُهم بالنَّصرِ في الدُّنيا، والأجرِ العظيمِ في الآخِرةِ.

5- ذِكْرُ بَيعةِ الحُدَيْبِيَةِ، وبيانُ أحوالِ المُنافِقينَ المُتخَلِّفينَ عنها، وصِفاتِهِمُ السَّيِّئةِ، وما حصَلَ مِن مَنْعِهم مِنَ المشارَكةِ في غَزوةِ خَيْبَرَ، وإنبائِهم بأنَّهم سيُدْعَوْنَ إلى جِهادٍ آخَرَ.

6- بَيانُ الَّذينَ يُباحُ لهمُ التَّخلُّفُ عن الجِهادِ مِن أصحابِ الأعذارِ.

7- الحديثُ عن بَيعةِ الرِّضوانِ، والتَّنويهُ بشَأنِ مَن حضَرَها، وتَبشيرُ اللهِ بما أعَدَّ لهم مِنَ مَغانمَ كثيرةٍ وفُتوحٍ.

8- بَيانُ الأسبابِ الَّتي دعتِ الكُفَّارَ إلى صَدِّ المؤمنينَ عن البَيتِ الحَرامِ.

9- تَصديقُ رُؤْيا رسولِ اللهِ - ﷺ -، بدُخولِه وأصحابِه المَسجِدَ الحرامَ آمِنينَ.

10- بيانُ مَنزِلةِ النَّبيّ - ﷺ - وأصحابِه، وصِفاتِهِمُ الحسَنةِ في التَّوراةِ والإنجيلِ، وما أعَدَّه اللهُ لِلَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِنَ المَغفرةِ والأجرِ العظيمِ.

# سُورَةُ الفَتْحِ

## الآيات (1–3)

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3)

## تَفسيرُ الآياتِ:

### إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1).

أي: إنَّا فتَحْنا لك -يا محمَّدُ- بصُلحِ الحُدَيبيَةِ فتحًا بَيّنًا ظاهِرًا، وحَكَمْنا وقَضَينا لك به قَضاءً مُحكَمًا عَظيمًا يَحصُلُ بسَبَبِه الخَيرُ الجَزيلُ، ويَظهَرُ به الحَقُّ المُبِينُ.(13)

عن عبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، في قِصَّةِ الحُدَيبيَةِ قال: ((... كان النَّبيُّ - ﷺ -إذا نزَل عليه الوَحيُ اشتَدَّ ذلك عليه، وعرَفْنا ذاك فيه، فتنَحَّى مُنتبِذًا(14) خَلْفَنا، فجعَل يُغطِّي رأسَه بثوبِه، ويَشتَدُّ ذلك عليه، حتَّى عرَفْنا أنَّه قد أُنزِلَ عليه، فأتانا فأخبَرَنا أنَّه قدْ أُنزِل عليه: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)).(15)

---

(13) اختُلف في معنى: ﴿إِنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ على أقوال: الأول: أنه فتح مكة.
الثاني: فتح خَيْبَر.
الثالث: إنا فتحنا لك بأن هديناك إلى الإسلام.
وذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٦٥) أن المعنى على قول جمهور الناس: «إنّ ما يسّر الله تعالى لك في تلك الخرجة فتحٌ مبينٌ تستقبله».
ثم رجَّحه مستندًا إلى أحوال النُّزول، فقال: «وهو الصحيح الذي تعضده قصة الحُدَيبية».
(14) مُنتبِذًا: أي: منفردًا، يقال: انْتَبَذَ فلانٌ، أي: انتحَى ناحيةً.
يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (317/14)، ((الصحاح)) للجوهري (571/2).
(15) أخرجه أبو داود (447) مختصرًا، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (7753) باختلافٍ يسيرٍ، وأحمدُ (4421) واللَّفظُ له.
قال البَزَّار في ((البحر الزخار)) (397/5): (محفوظٌ).
ووَثَّق رجالَ إسنادِه البُوصِيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (236/2)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (194/6)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (4421).
وصَحَّح الحديثَ مُختصرًا الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (447).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزلَت: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا إلى قولِه: فَوْزًا عَظِيمًا [الفتح: 1- 5] مَرْجِعَه مِنَ الحُدَيبيَةِ، وهم يُخالِطُهم الحُزْنُ والكآبةُ، وقدْ نَحَر الهَدْيَ بالحُدَيبيَةِ، فقال: لقدْ أُنزِلتْ علَيَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ مِن الدُّنيا جميعًا!)).(16)

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أيُّها النَّاسُ اتَّهِموا أنفُسَكم؛ فإنَّا كُنَّا مع رَسولِ اللهِ - ﷺ - يومَ الحُدَيبيَةِ، ولو نَرى قِتالًا لقاتَلْنا، فجاء عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فقال: يا رَسولَ اللهِ، ألَسْنا على الحَقِّ وهمْ على الباطِلِ؟! فقال: بلَى! فقال: أليْس قَتْلانا في الجنَّةِ وقَتْلاهم في النَّارِ؟! قال: بلى! قال: فعَلامَ نُعطي الدَّنيَّةَ(17) في دِينِنا؟! أنَرجِعُ ولَمَّا يَحكُمِ اللهُ بيْننا وبيْنَهم؟! فقال: يا ابنَ الخطَّابِ، إنِّي رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَني اللهُ أبدًا! فانطلَقَ عُمَرُ إلى أبي بَكرٍ فقال له مِثلَ ما قال للنَّبِيِّ - ﷺ -، فقال: إنَّه رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَه اللهُ أبدًا! فنَزَلت سورةُ الفَتحِ، فقَرَأَها رَسولُ اللهِ - ﷺ - على عُمَرَ إلى آخِرِها. فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، أوَفَتحٌ هو؟! قال: نعمْ)).(18)

وعن أسلَمَ مَولى عُمَرَ: ((أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ -كان يَسيرُ في بَعضِ أسفارِه، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ معه ليلًا، فسَأله عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عن شَيءٍ فلم يُجِبْه رَسولُ اللهِ - ﷺ -، ثمَّ سَأله فلم يُجِبْه، ثمَّ سَأله

---

(16) رواه مسلمٌ (1786).

(17) الدَّنيَّةُ: الحالةُ الخسيسةُ، والخصلةُ الناقصةُ، ويعني به: الصُّلحَ على ما شرَطوا.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (137/2)، ((المفهم)) للقرطبي (640/3)، ((شرح النووي على مسلم)) (141/12).

(18) رواه البخاريُّ (3182) واللفظ له، ومسلمٌ (1785).

فلم يُجبْه، فقال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: ثَكِلَتْ أمُّ عُمَرَ! نزرْتَ رسولَ اللهِ - ﷺ - ثلاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذلك لا يُجيبُك! قال عُمَرُ: فحرَّكتُ بعيري ثمَّ تقدَّمتُ أمامَ النَّاسِ، وخَشِيتُ أنْ يُنزَلَ فِيَّ قُرآنٌ، فما نَشِبتُ أنْ سَمِعتُ صارِخًا يَصرُخُ بي، فقُلتُ: لقدْ خَشِيتُ أنْ يكونَ نزَلَ فِيَّ قُرآنٌ! فجِئتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - فسَلَّمتُ عليه، فقال: لقدْ أُنزِلتْ علَيَّ اللَّيلةَ سُورةٌ لَهِيَ أحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَت عليه الشَّمسُ، ثمَّ قرَأ: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)).[19]

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((تَعُدُّونَ أنتُم الفَتحَ فَتحَ مَكَّةَ، وقدْ كان فَتحُ مَكَّةَ فَتحًا، ونحْن نَعُدُّ الفَتحَ بَيعةَ الرِّضوانِ يومَ الحُدَيبِيَةِ؛ كُنَّا مع النَّبِيِّ - ﷺ - أربعَ عَشْرةَ مِائةً، والحُدَيبِيَةُ بِئرٌ، فنَزَحْناها فلمْ نَترُكْ فيها قَطْرَةً! فبلَغَ ذلك النَّبِيَّ - ﷺ - فأتاها فجلَسَ على شَفيرِها،[20] ثمَّ دعا بإناءٍ مِن ماءٍ فتوَضَّأَ، ثمَّ مَضمَضَ ودَعا، ثمَّ صَبَّه فيها، فترَكْناها غيرَ بَعيدٍ، ثمَّ إنَّها أصدَرَتْنا[21] ما شِئْنا نحن ورِكابَنا!)).[22]

---

(19) رواه البخاري (4833).

(20) شَفيرِها: أي: حرفِها.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (6/346).

(21) أصدَرَتْنا: أي: أرجَعتْنا وقدْ رَوينا.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلَّاني (6/346).

(22) رواه البخاريُّ (4150).

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا

(2).

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ.

أي: إنَّا فتَحْنا لك –يا مُحَمَّدُ– فتَحًا مُبِينًا؛[23] كي نَغفِرَ لك جَميعَ ذُنوبِك.[24]

---

(23) رجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٢٣٦ – ٢٣٧) –مستندًا إلى القرآن، والسنة، والدلالة العقلية– أن قوله تعالى: ﴿إنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ﴾ معناه: «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا لِتَشْكُر ربَّك وتحمَدَه على ذلك، فيغفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر».

وعلَّل ذلك بقوله: «وإنما اخترنا هذا القول في تأويل هذه الآية لدلالة قول الله – عز وجل –: ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ والفَتْحُ ورَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أفْواجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إنَّهُ كانَ تَوّابًا﴾ [النصر: ١ – ٣] على صحته، إذ أمَرَه –تعالى ذِكره– أن يُسَبِّح بحمد ربه إذا جاءه نصر الله وفتح مكة، وأن يستغفره، وأعلمه أنّه توابٌ على مَن فعل ذلك، ففي ذلك بيانٌ واضحٌ أنّ قوله –تعالى ذكره–: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ﴾ إنما هو خبرٌ من الله –جلَّ ثناؤه– نبيَّه –عليه الصلاة والسلام– عن جزائه له على شُكره له على النعمة التي أنعم بها عليه، من إظهاره له ما فتح؛ لأن جزاء الله تعالى عباده على أعمالهم دون غيرها».

ثم استشهد بحديث عائشة، وبقول النبي – ﷺ –: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في كل يوم مئة مرة».

ثم قال: «ولو كان القول في ذلك أنّه مِن خبر الله –تعالى ذكره– نبيَّه أنه قد غفَر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، على غير الوجه الذي ذكَرْنا، لم يكن لأمره إيّاه بالاستغفار بعد هذه الآية ولا لاستغفار نبيِّ الله – ﷺ – ربَّه –جل جلاله– من ذنوبه بعدها معنًى يُعقَل؛ إذ الاستغفار معناه: طلبُ العبد من ربِّه – عز وجل – غفران ذنوبه، فإذا لم يكن ذنوبٌ تُغْفَر لم يكن لمسألته إيّاه غفرانها معنًى؛ لأنه من المُحال أن يقال: اللهم، اغفر لي ذنبًا لم أعْمَلْه».

وذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٦٦) أن «المراد هنا: أنّ الله تعالى فتح لك لكي يجعل لك ذلك أمارة وعلامة لغفرانه لك. فكأنها لام صيرورة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أُنزلت عليّ الليلة سورة هي أحبُّ إليّ من الدنيا»».

ثم انتقد قول ابن جرير –مستندًا إلى أحوال النزول، والدلالة العقلية– قائلًا: «وهذا ضعيفٌ من وجهين: أحدهما: أنّ السورة ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إنما نزلت في آخر مدة النبيّ – ﷺ – ناعيةً له نفسه حسب ما قال ابن عباس – رضي الله عنهما –، عندما سأل عمرُ – رضي الله عنهما – عن ذلك.

والآخر: أنّ تخصيص النبي – ﷺ – بالتشريف كان يذهب، لأنّ كلّ واحد من المؤمنين مخاطبٌ بهذا الذي قال الطبري، أي: سبّح واستغفر لكي يغفر الله لك، ولا يقتضي هذا أنّ الغفران قد وقع، وما قدّمناه أولًا يقتضي وقوع الغفران للنبي – ﷺ –، ويدل على ذلك قول الصحابة – رضي الله عنهم – له – ﷺ – حين قام حتى تورَّمت قدماه: أتفعل هذا –يا رسول الله– وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!».

فهذا نصٌّ في أن الغفران حكمٌ قد وقع».

وانتقد ابنُ عطية (٧/ ٦٦٧) قول سفيان قائلًا: «وهذا ضعيف، وإنما المعنى: التشريف بهذا الحكم، ولو لم تكن له ذنوب البتّة».

ثم ذكر قول عطاء، ونقل عن بعضهم أن المعنى: «﴿ما تَقَدَّمَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم بدر: «اللهم، إن تَهلِك هذه العصابة لم تُعبَد».

كما قال تعالَى: وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ [الشرح: 2، 3].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((كان رَسولُ اللهِ – ﷺ – إذا صلَّى قام حتَّى تَفطَّرَ رِجلاه! قالتْ عائِشةُ: يا رَسولَ اللهِ، أتصنَعُ هذا وقدْ غُفِرَ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنبِك وما تأخَّرَ؟! فقال: يا عائِشةُ، أفلا أكونُ عبدًا شَكورًا؟!)).(25)

---

﴿وما تَأَخَّرَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم حنين: «لن نُغلَبَ اليوم من قِلَّة»».
ثم انتقد ذلك قائلًا: «وهذا كلُّه مُعترَض».
(24) قال عطاء الخُراسانيّ: ﴿ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ﴾ يعني: ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك، ﴿وما تَأَخَّرَ﴾ ذنوب أمتك بدعوتك
تفسير الثعلبي ٩/ ٤٢، وتفسير البغوي ٧/ ٢٩٨.
بيَّن ابنُ تيمية (٦/ ٦ – ٩ بتصرف) أن هذا القول «وإن كان لم يَقُلْه أحدٌ من الصحابة والتابعين ولا أئمة المسلمين، ولا يقولُه من يَعقِلُ ما يقول، فقد قاله طائفة من المتأخرين».
ثم انتقده قائلًا: «ويَظُنُّ بعضُ الجهال أنّ هذا معنًى شريف، وهو كذِب على الله، وتحريفُ الكَلِم عن مواضعه».
وبيَّن بطلانه –مستندًا إلى القرآن، والسنة، والدلالة العقلية– من وجوه: «الأول: أنّ آدم تاب وغفر له ذنبه قبل أن يولد نوح وإبراهيم، فكيف يقول له: ﴿إنّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ليغفر الله لك ذنب آدم؟! الثاني: أنّ الله يقول: ﴿ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ [الإسراء: ١٥]، فكيف يضافُ ذنبُ أحدٍ إلى غيره؟! الثالث: أنّ في حديث الشفاعة الذي في الصحاح أنهم: «يأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك مِن روحه، وأسجد لك ملائكته، اشفع لنا إلى ربك. فيذكر خطيئته، ويأتون نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى، فيقول لهم: اذهبوا إلى محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».
فكان سبب قبول شفاعته كمال عبوديته، وكمال مغفرة الله له، فلو كانت هذه لآدم لكان يشفع لأهل الموقف.
الرابع: أنّ هذه الآية لما نزلت قال أصحابه – رضي الله عنهم –: يا رسول الله، هذا لك فما لنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إيمانًا مَعَ إيمانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].
فلو كان ما تأخر من ذنوبهم لقال: هذه الآية لكم.
الخامس: كيف يقول عاقل: إنّ الله غفر ذنوب أمته كلها، وقد علم أنّ منهم مَن يدخل النار وإن خرج منها بالشفاعة؟! السادس: أنه قد ميَّز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله: ﴿واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ولِلْمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ﴾، فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنبًا له».
(25) رواه البخاري (4837)، ومسلم (2820) واللفظ له.

وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ.

أي: ولِيُكْمِلَ اللهُ سُبحانَه نِعمَتَه عليك –يا محمَّدُ– في الدُّنيا والآخِرةِ.

كما قال تعالَى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا [المائدة: 3].

وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا.

أي: ولِيُرشِدَك اللهُ إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، بما يَشرَعُ لك مِنَ الإسلامِ المُوصِلِ إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه.

كما قال تعالَى: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 161].

## وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3).

أي: ولِيَنصُرَك اللهُ على أعدائِك نصرًا قَويًّا قاهِرًا تامًّا مَنيعًا، بلا ذُلٍّ ولا ضَعفٍ.

كما قال تعالَى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ [غافر: 51].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ - ﷺ - أنَّه قال: ((نُصِرْتُ بالرُّعبِ[26] على العَدُوِّ)).[27]

(26) نُصِرتُ بالرُّعبِ: يعني: الخوفَ الَّذي وضَعَه اللهُ تعالَى منه في القلوبِ؛ فإنَّه نصَره به، فكفاهُ كثيرًا مِن القِتالِ.

يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرَةَ (6/113).

(27) رواه البخاريُّ (2977)، ومسلمٌ (523) واللفظ له.

# سُورةُ الفَتْحِ

## الآيات (4–7)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7)

## غَريبُ الكَلِماتِ:

السَّكِينَةَ: أي: السُّكونَ والطُّمَأنينةَ؛ مِنَ السُّكونِ الَّذي هو الوَقارُ، وزوالُ الرُّعبِ، وأصلُ (سكن): يدُلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ.

وَيُكَفِّرَ: أي: يَستُرَ، ويَمحُوَ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ.

دَائِرَةُ السَّوْءِ: أي: دائِرةُ الهَزيمةِ والشَّرِّ والعَذابِ، والدَّائِرةُ تكونُ في المكروهِ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأصلُ (سوء): القُبحُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4).

**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.**

أي: اللهُ هو الَّذي أنزَلَ الطُّمَأْنينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ مِن أصحابِ نَبيِّه - ﷺ -، فسَكَنَت قُلوبُهم إلى الحَقِّ حينَ منَعَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبِيَةِ؛ فلم تَضطَرِبْ نُفوسُهم.

عن البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((بيْنَما رجُلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ - ﷺ - يَقرَأُ، وفَرَسٌ له مَربوطٌ في الدَّارِ، فجعَل يَنفِرُ، فخَرَج الرَّجُلُ فنَظَر فلمْ يَرَ شَيئًا، وجعَلَ أي: الفَرَسُ يَنفِرُ، فلمَّا أصبَحَ ذَكَر ذلك للنَّبيِّ - ﷺ -، فقال: السَّكينةُ تنزَّلَت بالقُرآنِ!)).[28]

**لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ.**

أي: أنزَلَ اللهُ السَّكينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ؛ لِيَزدادوا بذلك إيمانًا فَوقَ إيمانِهم السَّابِقِ مِن قَبلِ صُلحِ الحُدَيبِيَةِ.

---

(28) رواه البخاريُّ (4839) واللفظ له، ومسلمٌ (795).

كما قال تعالَى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [الأنفال: 2].

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ولله جُنودُ السَّموات والأرضِ؛ مِن الملائكةِ والجِنّ والإنسِ وغيرِهم، يَنتقِمُ بهم ممَّن يَشاءُ مِن أعدائِه.

كما قال تعالَى: وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ [المدثر: 31].

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ التَّامّ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ، وبالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5).

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: لِيُدخِلَ اللهُ المُؤمنينَ والمُؤمِناتِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ غُرَفِها وأشجارِها، وهم ماكِثونَ فيها أبَدًا.

وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ.

أي: ولِيَمحوَ اللهُ عن المُؤمنينَ والمُؤمناتِ ذُنوبَهم، فلا يُؤاخِذَهم بها.

كما قال تعالَى: وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التغابن: 9].

وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا.

أي: ذلك الوَعدُ بإدخالِ المُؤمنينَ والمُؤمناتِ الجَنَّةَ، وتَكفيرِ سَيِّئاتِهم: فوزٌ عَظيمٌ، فيَظفَرونَ بكُلِّ خيرٍ، ويَنجُونَ مِن كُلِّ شَرٍّ.

كما قال تعالَى: وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ [آل عمران: 185].

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6).

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ.

أي: ولِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ، والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ؛ في الدُّنيا.

كما قال تعالَى: سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ [التوبة: 101].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا [طه: 124].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [السجدة: 21].

الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

أي: الَّذين يَظُنُّونَ أنَّ اللهَ لنْ يَنصُرَ رَسولَه والمُؤمِنينَ على أعدائِهم، وأنَّه سيُسْلِمُهم للقَتلِ، وأنَّه لن يُظهِرَ دِينَه وكَلِمتَه على الكُفرِ وأهلِه؛ فيَنسُبونَ إلى اللهِ ما لا يَليقُ بحِكمتِه وقَضائِه.(29)

كما قال تعالَى: يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ [آل عمران: 154].

وقال سُبحانَه: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا [الفتح: 12].

---

(29) نقل ابنُ عطية (٧/ ٦٦٩) في معنى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ قولين: الأول: «معناه: من قولهم: ﴿لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ الآية [الفتح: ١٢]».

ثم وجَّهه بقوله: «فكأنهم ظنُّوا بالله تعالى ظنَّ سوءٍ في جهة الرسول - ﷺ - والمؤمنين».

الثاني: «ظنوا بالله تعالى ظنَّ سَوءٍ إذ هم يعتقدونه بغير صفاته».

ثم وجَّهه بقوله: «فهي ظنون سَوءٍ من حيث هي كاذبة مؤدِّية إلى عذابهم في نار جهنم».

ثم علَّق بقوله: «وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ﴾ كأنه يُقوّي التأويل الآخر -أي: القول الأول-، أي: أصابهم ما أرادوه بكم».

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ.

أي: على المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ، الَّذين يَظُنُّونَ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ: دائِرةُ العَذابِ والشُّرورِ والمَساوئِ والمصائِبِ، تَدورُ عليهم وتُحيطُ بهم في الدُّنيا.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ السُّوءِ بضَمِّ السِّينِ، بمعنى: الهزيمةِ والشَّرِّ والبَلاءِ، أي: عليهم دائِرةُ الشَّرِّ والهَزيمةِ والبَلاءِ والضَّرَرِ.[30]

2- قِراءةُ: السَّوْءِ بفَتحِ السِّينِ، بمعنى: الرَّداءةِ والفَسادِ، أي: عليهم دائِرةُ الفَسادِ. وقيل: المعنى: عليهم الدَّائِرةُ التي تَسوءُهم سَوءًا. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، كالضُّعْفِ والضَّعْفِ.[31]

وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

---

(30) قرَأ بها ابنُ كثير، وأبو عمرٍو.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 283).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((الحُجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 177)، ((معاني القراءات)) للأزهري (461/1)، ((الحُجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (206/4-209)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 322)، ((الكشف)) لمكي (505/1).

(31) قرَأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: 283).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (634/11)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: 177)، ((معاني القراءات)) للأزهري (461/1)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (206/4-209)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 322)، ((الكشف)) لمكي (505/1)، ((تفسير الزمخشري)) (334/4).

أي: وغَضِبَ اللهُ على المُنافِقِينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكِينَ والمُشرِكاتِ.

وَلَعَنَهُمْ.

أي: وأبعَدَهم اللهُ وطَرَدَهم مِن رَحمتِه.

وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ.

أي: وهَيَّأَ لهم جهنَّمَ يَدخُلونَها في الآخِرةِ.

وَسَاءَتْ مَصِيرًا.

أي: وساءَت جَهنَّمُ مَنزِلًا يَصيرونَ إليه يومَ القِيامةِ.

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7).

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ولله جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِنَ الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، يَنتَقِمُ بهم ممَّن يَشاءُ مِن أعدائِه.[32]

---

(32) نقل ابن عطية (٧/ ٦٧٠) عن ابن المبارك –نقلًا عن النقاش– أن «جنود الله في السماء: الملائكة. وفي الأرض: الغزاة في سبيل الله تعالى».

ثم علَّق بقوله: «وهذا بعضٌ من كلّ».

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ الغالِبُ لكُلِّ شَيءٍ، لا يَغلِبُه أحَدٌ، ولا يَمنَعُه مِمَّا أراده أحَدٌ، وهو المتَّصِفُ بالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

كما قال تعالَى: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة: 20، 21].

# سُورةُ الفَتْحِ

## الآيات (8–10)

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا
يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10)

## غَرِيبُ الكَلِماتِ:

وَنَذِيرًا: أي: مُنذِرًا ومُحَذِّرًا ومُخَوِّفًا، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ.

وَتُعَزِّرُوهُ: أي: تُعَظِّموه وتُقَوُّوه، وأصلُ التَّعزيرِ: النُّصرةُ معَ التَّعظيمِ.

وَتُوَقِّرُوهُ: أي: تُسَوِّدوه وتُعَظِّموه؛ مِنَ التَّوقيرِ: وهو الاحتِرامُ والإجلالُ والإعظامُ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلٍ في الشَّيءِ.

بُكْرَةً: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدْئِه.

وَأَصِيلًا: أي: آخِرَ النَّهارِ، وأصلُه: يدُلُّ على ما كان مِنَ النَّهارِ بعدَ العَشيِّ.

نَكَثَ: أي: نَقَض، وأصلُ (نكث): يدُلُّ على نَقضِ شَيءٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8).

أي: إنَّا أرسَلْناك –يا مُحمَّدُ– شاهِدًا، ومُبَشِّرًا بالخَيرِ والثَّوابِ لِمَن أطاعك، ومُنذِرًا بالشَّرِّ والعَذابِ لِمَن خالَفَك.(33)

كما قال تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا [النساء: 41].

وقال سُبحانَه: وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ [النحل: 89].

وقال عزَّ وجلَّ: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا [مريم: 97].

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9).

---

(33) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٧١) في معنى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِدًا﴾ قولين: الأول: الشاهد: محصِّل الشهادة من يوم يحصِّلها.

ووجَّهه بقوله: «فقوله تعالى: ﴿شاهِدًا﴾ حالٌ واقعة».

الثاني: الشاهد: مؤدِّي الشهادة.

ووجَّهه بقوله: «فهي حالٌ مستقبلة، وهي التي يسمّيها النّحاة: المقدَّرة».

ثم علَّق بقوله: «والمعنى: شاهِدًا على الناس بأعمالهم وأقوالهم حين بلَّغْتَ إليهم الشرع، ومُبَشِّرًا أهل الطاعة برحمة الله تعالى، ونذيرًا لأهل الكفر ينذرهم من عذاب الله – عز وجل –».

لِتُؤْمِنوا بِاللَّهِ وَرَسُولِه.

أي: أرسَلْنا مُحمَّدًا – ﷺ – شاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذيرًا؛ لِتُؤمِنوا –أنتم أيُّها النَّاسُ– باللهِ ورَسولِه، وتَقومُوا بما يَستَلزِمُ ذلك مِن طاعتِهما في جميعِ الأُمورِ.

وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ.

أي: ولِتُؤَيِّدوه وتَنصُروه، وتُعظِّموه وتُجِلُّوه.(34)

وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا.

أي: ولِتُسَبِّحوا اللهَ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الأحزاب: 41، 42].

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10).

(34) اختُلف في معنى: ﴿وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ﴾ في هذه الآية على ثلاثة أقوال، وعلَّق عليها ابنُ جرير (٢١/ ٢٥٢) بقوله: «وهذه الأقوال متقاربات المعاني، وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها.
ومعنى التعزير في هذا الموضع: التَّقوية بالنُّصْرة، والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال».

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ.

أي: إنَّ أصحابَك –يا مُحَمَّدُ– الَّذين يُبايِعونك بالحُدَيبيَةِ على ألَّا يَفِرُّوا عندَ لِقاءِ الكُفَّارِ: إنَّما يُبايِعونَ اللهَ في حقيقةِ الأمرِ.

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قال لنا رَسولُ اللهِ – ﷺ – يومَ الحُدَيبيَةِ: أنتم خَيرُ أهلِ الأرضِ. وكُنَّا ألْفًا وأرْبَعَمِئَةٍ)).[35]

يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ.

أي: يدُ اللهِ فوقَ أيدي أولئك المُبايِعينَ مِن أصحابِ رَسولِه – ﷺ – وَقتَ بَيعتِه.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: 111].

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ.

أي: فمَن نَقَض بَيعَتَه فإنَّما يَضُرُّ نَفْسَه بذلك؛ لاستِحقاقِه العِقابَ، وحِرمانِ نَفْسِه مِن الثَّوابِ.

---

(35) رواه البخاريُّ (4154) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (1856).

وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا.

أي: ومَن أَوفَى بما عاهَدَ اللهَ عليه في البَيعةِ؛ مِن الصَّبرِ عندَ قِتالِ الكُفَّارِ، ونُصرةِ الرَّسولِ: فسيُؤتيه اللهُ ثَوابًا جَزيلًا على وَفائِه، بوَعدٍ لا خُلْفَ فيه.

# سُورةُ الفَتْحِ

## الآيات (11–14)

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ
مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ
كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ
أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (14)

## غَريبُ الكَلِماتِ:

**بُورًا**: أي: هَلْكى، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ وتَعَطُّلِه وخُلُوِّه.

**سَعِيرًا**: أي: نارًا شَديدةَ التَّلَهُّبِ والاتِّقادِ، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11).

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا.

أي: سيَقولُ لك -يا مُحمَّدُ- أهلُ البَوادي السَّاكِنونَ حوْلَ المدينةِ، الَّذين خَلَّفهم اللهُ في أهاليهم عن السَّفَرِ معك إلى مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا عاتَبْتَهم على تخَلُّفِهم، وقد أمَرْتَهم بالخُروجِ معك: شغَلَتْنا أموالُنا مِنَ الإبِلِ أو غَيرِها، وأهلونا مِنَ النِّساءِ والذَّراريِّ عن الخُروجِ معك؛ فادعُ اللهَ أن يَغفِرَ لنا تخَلُّفَنا عنك!

يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ.

أي: يَقولُ لك أولئك المُخَلَّفونَ بألسِنَتِهم قولًا مُجرَّدًا لا يَعتَقِدونَه بقُلوبِهم، فهم كاذِبونَ في اعتذارِهم، وفي طلبِهم للاستِغفارِ!

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئكَ الأعرابِ: لا أحَدَ يَملِكُ دَفْعَ الضَّرِّ الَّذي أراده اللهُ بكم مِن أيِّ نوعٍ كان؛ عَظيمًا أو حَقيرًا؛ فهو قادِرٌ على إهلاكِ أموالِكم وأهليكم مهما فعَلْتُم وشُغِلْتُم بها، ولا أحَدَ يَملِكُ مَنْعَ

النَّفعِ الَّذي أرادَه اللهُ لكم مِن أيِّ نَوعٍ كان؛ قليلًا أو كثيرًا؛ فهو قادِرٌ على حِفظِ أموالِكم وأهليكم مع تَغَيُّبِكم، فلا يَضُرُّها بُعدُكم عنها.

كما قال تعالى: قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [الأحزاب: 17].

## القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ ضُرًّا بضمِّ الضَّادِ، بمعنى البؤسِ والسُّقمِ وسوءِ الحالِ.(36)

2- قراءةُ ضَرًّا بفتحِ الضَّادِ، ضدُّ النَّفعِ، وقيل: هما بمعنًى واحدٍ، مِثلُ: الضُّعفِ والضَّعفِ.(37)

بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الأعرابُ مِن أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ ما تَنطوي عليه قُلوبُهم؛ فاللهُ تعالى عالِمٌ ببَواطِنِ أُمورِهم، لا يَخفَى عليه تخَلُّفُهم أو غَيرُه مِن أعمالِهم.

---

(36) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/375).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (21/258)، ((معاني القراءات)) للأزهري (3/ 20)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (6/202).

(37) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/375).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (21/258)، ((معاني القراءات)) للأزهري (3/20)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (6/202).

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12).

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا.

أي: لم تَتخلَّفوا -أيُّها الأعرابُ- عن الخُروجِ مع الرَّسولِ والمُؤمِنينَ لِشَغْلِكم بأموالِكم وأهليكم كما زعَمْتُم، كلَّا! وإنَّما تخلَّفتُم عنهم لظَنِّكم أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ سيَستأصِلونَهم بالقَتلِ، فلا يَرجِعونَ إلى أهليهم في المدينةِ أبَدًا.

وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ.

أي: وحَسَّن الشَّيطانُ ذلك الظَّنَّ في قُلوبِكم، فحسَّن لكم التَّخَلُّفَ عن الخُروجِ مع المؤمِنينَ.

وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ.

أي: وظنَنْتُم أنَّ اللهَ لن يَنصُرَ رَسولَه والمؤمِنينَ، ولن يَرْجِعَهم سالِمينَ، ولن يُظهِرَ الحقَّ المُبِينَ.

وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا.

أي: وكُنتُم -أيُّها المُخلَّفونَ- قَومًا في غايةِ الهَلاكِ والكَسادِ، لا خَيرَ فيكم، ولا نَفْعَ يُرجَى منكم!

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13).

أي: ومَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ ورَسولِه فإنَّه كافِرٌ مُستَحِقٌّ للعِقابِ، وقد أعدَدْنا وهَيَّأْنا للكافِرِين نارًا شديدةَ التلَهُّبِ والاتِّقادِ!

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (14).

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، فيَتصَرَّفُ وَحْدَه فيهما كما يَشاءُ، ويَحكمُ بما يَشاءُ.

يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ.

أي: يَغفِرُ اللهُ بفَضلِه لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُعَذِّبُ بعَدْلِه مَن يَشاءُ منهم.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ أزَلًا وأبَدًا، فهو الغَفورُ لِذُنوبِ عِبادِه؛ فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو الرَّحيمُ بهم؛ فيُكرِمُهم، ويُنعِمُ عليهم بنِعَمِه.

# سُورةُ الفَتْحِ

## الآيات (15–17)

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ
اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ
إِلَّا قَلِيلًا (15) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ
يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا (16) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ
يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17)

## غَرِيبُ الكَلِماتِ:

**بَأْسٍ**: أي: قُوَّةٍ وبَطشٍ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها.

**حَرَجٌ**: أي: إثمٌ ومُؤاخَذةٌ، وأصلُ (حرج): يدُلُّ على ضِيقٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15).

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ.

أي: سيَقولُ الأعرابُ الَّذين خُلِّفوا في أهلِيهم، ولم يَخرُجوا مع الرَّسولِ - ﷺ - إلى مكَّةَ عامَ الحُدَيبِيَةِ، إذا انطَلَقْتَ -أيُّها الرَّسولُ- وأصحابُك إلى خَيبَرَ؛ لِتَأخُذوا المغانِمَ الَّتي وعَدَكم اللهُ بأخْذِها: دَعُونا نَتَّبِعْكم إلى خَيبَرَ!

يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ.

أي: يُريدُ الأعرابُ المُخَلَّفونَ عن الحُدَيبِيَةِ أن يُغَيِّروا بذَهابِهم معكم وَعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه أهلَ الحُدَيبِيَةِ بأنْ يَجعَلَ غنائِمَ خَيبَرَ لهم خاصَّةً؛ عِوَضًا عن غنائِمِ قُرَيشٍ بعدَ انصِرافِهم عن مَكَّةَ على صُلحِ الحُدَيبِيَةِ.[38]

---

(38) اختُلف في معنى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: يريدون أن يُغيِّروا وعْد الله لأهل الحُدَيبية بجَعْل غنائم خَيْبَرَ لهم.

الثاني: أنّ الله تعالى وعَد نبيَّه - ﷺ - بالحُدَيبية أن يفتح عليه خَيْبَرَ، ونهاه عن أن يسير معه أحد من المتخلِّفين، فأراد المخَلَّفون أنْ يغيِّروا كلامَ الله الذي أمر به نبيَّه - ﷺ -.

قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لن تَسيروا مَعَنا إلى خَيبرَ.

كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ.

الثالث: يريدون أن يبدِّلوا كلام الله، أي: كتاب الله، كانوا يُبطِّئون المسلمين عن الجهاد ويأمرونهم أن يفرُّوا.

الرابع: عُنِيَ بالآية: إرادتهم الخروج مع نبيّ الله - ﷺ - في غَزْوِه، وقد قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣].

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٢٦٤) القول الأول، وهو قول مجاهد، ومقسم، وقتادة، وجويبر.

وانتقد (٢١/ ٢٦٣) القول الرابع، وهو قول ابن زيد، مستندًا إلى أحوال النزول، والدلالة العقلية، فقال: «وهذا الذي قاله ابن زيد قولٌ لا وجه له؛ لأن قول الله - عز وجل -: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ إنما نزل على رسول الله - ﷺ - مُنصرَفَه مِن تبوك، وعُنِيَ به الذين تخلَّفوا عنه حين توجَّه إلى تبوك لغزو الروم، ولا اختلاف بين أهل العلم بمغازي رسول الله - ﷺ - أنّ تبوك كانت بعد فتح خَيْبَر، وبعد فتح مكة أيضًا، فكيف يجوز أن يكون الأمرُ على ما وصفنا معنيًّا بقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾، وهو خبرٌ عن المتخلِّفين عن المسير مع رسول الله - ﷺ - -إذ شخص معتمرًا يريد البيت، فصدَّه المشركون عن البيت- الذين تخلَّفوا عنه في غزوة تبوك، وغزوة تبوك لم تكن كانت يوم نزلت هذه الآية، ولا كان أُوحِي إلى رسول الله - ﷺ - قوله: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾».

وانتقده ابنُ عطية (٧/ ٦٧٥) -مستندًا إلى أحوال النزول- قائلًا: «وهذا قول ضعيف؛ لأنّ هذه الآية نزلتْ في رجوع رسول الله - ﷺ - من تبوك، وهذا في آخر عمره - ﷺ -، وآية هذه السورة نزلت سنة الحُدَيبية، وأيضًا فقد غزت جُهَينة ومُزَيْنَة بعد هذه المدة مع رسول الله - ﷺ -، وقد فضَّلهم رسول الله - ﷺ - -بعد ذلك- على تميم وغطفان وغيرهم من العرب، الحديث المشهور، فأخبره الله تعالى أن يقول لهم في هذه الغزوة إلى خَيْبَر: ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾، وخصَّ الله تعالى بها أهل الحُدَيبية».

ونحوه قال ابنُ كثير (١٣/ ١٠٢).

أي: هكذا قال اللهُ لنا مِن قَبلِ أن نَرجِعَ إليكم مِنَ الحُدَيبِيَةِ، وتَسألونا الخُروجَ مَعَنا إلى خَيبَرَ: إنَّ غنيمةَ خَيبَرَ خاصَّةٌ بمَن شَهِدَ الحُدَيبِيَةَ، وأنتم تخَلَّفتُم عن الخُروجِ في ذلك الوَقتِ؛ فليس لكم إذْنٌ حَقٌّ في غنائِمِ خَيبَرَ.

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا.

أي: فسيَقولُ أولئك المُخَلَّفونَ مِن الأعرابِ حينَ تَمنَعونَهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى خَيبَرَ: ليس الأمرُ كما زَعَمْتُم أنَّه قَولُ اللهِ وأمْرُه، وإنَّما مَنَعْتُمونا مِنَ الخُروجِ معكم؛ لِكَونِكم تَحسُدونَنا على مُشارَكتِكم في الغنائِمِ!

بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

أي: ليس الأمرُ كما زعَمَ الأعرابُ أنَّكم مَنعتُموهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى خَيبَرَ حَسَدًا لهم، وإنَّما هم قَومٌ لا يَفهَمونَ ولا يَعقِلونَ إلَّا قَليلًا!

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16).

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ.

أي: قُلْ –يا محمَّدُ– للأعرابِ الَّذين خُلِّفوا عن المَسيرِ معَك إلى الحُدَيبِيَةِ: ستُدْعَونَ إلى قِتالِ قَومٍ ذَوي قُوَّةٍ شَديدةٍ في الحَرِبِ.(39)

---

(39) اختُلف في قوله تعالى: ﴿قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ مَن هؤلاء القوم على أقوال: الأول: هَوازن بحنين.

الثاني: الروم.

الثالث: أهل الرّدة وبنو حنيفة باليمامة.

الرابع: فارس والروم.

الخامس: هم أهل فارس.

السادس: لم تأت هذه الآية بعد.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٢٦٩) مستندًا إلى دلالة الإطلاق في ظاهر الآية «أن يُقال: إنّ الله –تعالى ذِكْره– أخبر عن هؤلاء المخلَّفين من الأعراب أنهم سيُدعَون إلى قتال قومٍ أولي بأسٍ في القتال، ونجدةٍ في الحروب، ولم يوضَع لنا الدليل من خبرٍ ولا عقلٍ على أن المعنيَّ بذلك هوازن، ولا بنو حنيفة، ولا فارس، ولا الروم، ولا أعيانٌ بأعيانهم، وجائزٌ أن يكون عُنِيَ بذلك بعض هذه الأجناس، وجائزٌ أن يكون عُنِيَ بهم غيرهم، ولا قول فيه أصح مِن أن يُقال كما قال الله –جلَّ ثناؤه–: إنهم سيُدعَون إلى قومٍ أولي بأسٍ شديد».

وعلَّق ابنُ عطية (٧/ ٦٧٦) على القول الأول بقوله: «ويندرج في هذا القول عندي مَن حروب وغلب في فتح مكة».

ثم رجَّح القول الأول والثاني مستندًا إلى دلالة الواقع، وانتقد باقي الأقوال قائلًا: «والقولان الأوّلان حسنان؛ لأنهما الذي كشف الغيب، وباقيهما ضعيف».

ثم نقل ابنُ عطية تعليق منذر بن سعيد على القول الثالث بقوله: «وقال منذر بن سعيد: يترَكَّب على هذا القول أن الآية مُؤذنة بخلافة أبي بكر الصِّديق وعمر بن الخطاب».

ووجَّهه بقوله: «يريد: لما كشف الغيب أنهما دَعَوا إلى قتال أهل الردة».

ونقل عن منذر بن سعيد أيضًا قوله: «رفع الله في هذه الجزية، وليس إلا القتال أو الإسلام، وهذا لا يوجد إلا في أهل الردة».

ثم علَّق عليه بقوله: «وكذا مَن حورب في فتح مكة».

ورجَّح ابنُ تيمية (٦/ ٢١ – ٢٢) القول الرابع مستندًا إلى دلالة الواقع، فذكر: أن أظهر الأقوال في الآية هو أن المراد «تُدعون إلى قتال أولي بأس شديد أعظم من العرب، لا بُدَّ فيهم مِن أحد أمرين: إما أن يُسلموا، وإما أن يُقاتَلوا؛ بخلاف مَن دُعوا إليه عام الحُدَيبية، فإنّ بأسهم لم يكن شديدًا مثل هؤلاء ودُعوا إليهم، ففي ذلك لم يُسلموا ولم يقاتلوا.
وكذلك عام الفتح في أول الأمر لم يُسلموا ولم يقاتلوا، لكن بعد ذلك أسلموا.

تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ.

أي: تُقاتِلون هؤلاءِ الَّذين تُدْعَوْنَ إلى قتالِهم، فلا يَزالُ القتالُ مُستمِرًّا عليهم، أو يَدْخُلونَ في دينِكم مِن غَيرِ حربٍ ولا قِتالٍ، فيكونُ أحدُ الأمْرَينِ: إمَّا المُقاتَلةُ، وإمَّا الإسلامُ، لا ثالثَ لهما.

فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا.

أي: فإنْ تُطيعوا اللهَ -أيُّها الأعرابُ- بإجابةِ الدَّعوةِ إلى قِتالِ الكُفَّارِ الأشِدَّاءِ، يُؤْتِكم اللهُ على الجِهادِ ثَوابًا حَسَنًا: الغَنيمةَ في الدُّنيا، والجنَّةَ في الآخِرةِ.

وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

أي: وإنْ تَعصُوا اللهَ فتُعْرِضوا عن القِتالِ كما تخَلَّفتُم مِن قَبلُ عن الخُروجِ إلى الحُدَيبِيَةِ، يُعَذِّبْكم اللهُ عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17).

---

وهؤلاء هم الروم والفرس ونحوهم، فإنه لابد من قتالهم إذا لم يُسلموا، وأول الدعوة إلى قتال هؤلاء عام مؤتة وتبوك».

وانتقد (٦/ ١٩) القول الأول بأنه لا «يجوز أن يكون دعاهم إلى قتال أهل مكة وهَوازن عقيب عام الفتح؛ لأن هؤلاء هم الذين دعوا إليهم عام الحُدَيبية، ومن لم يكن منهم فهو من جنسهم ليس هو أشدَّ بأسًا منهم، كلّهم عرب من أهل الحجاز، وقتالهم من جنس واحد، وأهل مكة ومَن حولها كانوا أشد بأسًا وقتالًا للنبي - ﷺ - وأصحابه يوم بدر وأحد والخندق مِن أولئك، وكذلك في غير ذلك من السرايا».

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ.

أي: ليس على الأعمى إثمٌ في تخَلُّفه عن الجِهادِ مع المُؤمنينَ؛ لِعُذرِه بالعَمى المانعِ له مِن القِتالِ.

وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ.

أي: وليس على الأعرَجِ إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ معَ المُؤمنينَ؛ لِعُذرِه بالعَرَجِ المانعِ له مِن القِتالِ.

وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ.

أي: وليس على المَريضِ بأمراضٍ أُخرى إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ معَ المُؤمنينَ؛ لِعُذرِه بالمَرَضِ المانعِ له مِن القِتالِ.

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه يُدخِلْه اللهُ في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها.

وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا.

أي: ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه يُعَذِّبْه اللهُ عَذابًا مُوجِعًا مُؤلِمًا.

# سُورةُ الفَتْحِ

## الآيات (18-23)

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ
عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19)
وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23)

## غَريبُ الكَلِماتِ:

لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ: أي: فَرُّوا وانفَضُّوا وغُلِبوا؛ يُقالُ: وَلَّاه دُبُرَه: إذا انهزَمَ، والتَّوَلِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ، وأصلُ الدُّبُرِ: آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه.

سُنَّةَ اللَّهِ: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ.

خَلَتْ: أي: مَضَت وذَهَبت، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18).

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

أي: لقد رَضِيَ اللهُ عن المُؤمنينَ حينَ بايَعوا رَسولَه – ﷺ – تحتَ الشَّجرةِ الكائِنةِ في أرضِ الحُدَيبِيَةِ، على أن يُقاتِلوا كُفَّارَ قُرَيشٍ ولا يَفِرُّوا.[40]

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كُنَّا يوم الحُدَيبِيَةِ ألفًا وأربَعَمِئَةٍ، فبايَعْناه وعُمَرُ آخِذٌ بيَدِه تحتَ الشَّجَرةِ، وهي سَمُرةٌ،[41] وقال: بايَعْناه على ألَّا نَفِرَّ، ولم نبايِعْه على المَوتِ)).[42]

(40) نقل ابن كثير (١٣/ ٩٢) في عدد الصحابة الذين بايعوا رسول الله – ﷺ – في بيعة الرضوان ثلاثة أقوال: الأول: ألف وثلاثمائة.

الثاني: وأربعمائة.

الثالث: وخمسمائة.

ثم رجَّح قائلًا: «والأوسط أصحّ».

ولم يذكر مستندًا.

(41) السَّمُرة: شجرة الطَّلْح.

يُنظر: ((الإفصاح)) لابن هُبَيْرة (4/162)، ((النهاية)) لابن الأثير (2/ 399).

(42) رواه مسلم (1856).

وعن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لقد رأيتُني يومَ الشَّجرةِ، والنَّبيُّ - ﷺ - يُبايعُ النَّاسَ، وأنا رافِعٌ غُصْنًا مِن أغصانِها عن رأسِه، ونحنُ أربعَ عَشْرةَ مِئةً. قال: لَمْ نُبايِعْه على الموتِ، ولكِنْ بايَعْناه على ألَّا نفِرَّ)).(43)

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: أخبرَتْني أمُّ مُبَشِّرٍ أنَّها سَمِعَت النَّبيَّ - ﷺ - يقولُ عندَ حَفصةَ: ((لا يَدخُلُ النَّارَ -إن شاءَ اللهُ- مِن أصحابِ الشَّجرةِ أحَدُ الَّذين بايَعوا تَحْتَها. قالت: بلى، يا رَسولَ اللهِ! فانتَهَرَها. فقالت حَفصةُ: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [مريم: 71]! فقال النَّبيُّ - ﷺ -: قد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [مريم: 72])).(44)

فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ.

أي: فعَلِمَ اللهُ ما في قُلوبِ الصَّحابةِ الَّذين بايَعوا النَّبيَّ تحتَ الشَّجَرةِ، مِن الصِّدْقِ والوَفاءِ، والطَّاعةِ للهِ ورَسولِه.(45)

---

(43) رواه مسلم (1858).

(44) رواه مسلم (2496).

(45) ذكر ابنُ القيم (٢/ ٤٥٨) أن المعنى: «علم الله – عز وجل – ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لَمّا منعهم كفارُ قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محلّه، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت، ولم تُطق الصبر، فعلم تعالى ما فيها، فثبّتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير».

ثم ذكر أن الآية تحتمل «أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله، فثبّتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها».

ثم رجّح –مستندًا إلى العموم– قائلًا: «والظاهر أن الآية تعمُّ الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة وما في قلوبهم مِن الخير الذي هو سبب إنزالها».

فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ.

أي: فأنزل اللهُ الطُّمَأنينةَ على قُلوبِهم، فثَبَتوا على الدِّينِ، وازدادوا يَقينًا بالحقّ المُبِينِ.

وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا.

أي: وجَزاهم اللهُ فَتْحًا يَحصُلُ لهم قَريبًا؛ جزاءً لهم على قِيامِهم بأمرِ اللهِ، ورِضاهم بحُكْمِه.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19).

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا.

أي: وأثابَهم غنائِمَ كَثيرةً يَأخُذونَها مِن أموالِ يَهودِ خَيبَرَ، وجعَلَها خاصَّةً لهم دُونَ غيرِهم.

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ الغالِبُ لكُلِّ شَيءٍ، ومُتَّصِفٌ بالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20).

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا.

أي: وعَدَكم اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- مَغانِمَ أُخرى كَثيرةً، وذلك مِن سائرِ المغانِمِ الَّتي يأخُذُها المُسلِمونَ بعدَ خَيبَرَ في الأوقاتِ الَّتي قدَّر اللهُ لهم أخْذَها فيها.(46)

فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ.

أي: فعجَّلَ اللهُ لكم -أيُّها المؤمِنونَ المُبايِعونَ رَسولَه تحتَ الشَّجَرةِ- غنائِمَ خَيبَرَ تأخُذونَها في وَقتٍ قَريبٍ بعدَ رُجوعِكم مِنَ الحُدَيبيَةِ، وستَحصُلُ لكم غنائِمُ كَثيرةٌ بَعدَها.(47)

---

(46) اختُلف في معنى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ أيُّ المغانم هي؟ على قولين: الأول: هو كلّ مَغْنَم غَنِمه المسلمون.
الثاني: هي مغانم خَيْبَر.
وعلَّق ابنُ جرير (٢١/ ٢٨٠) على القول الأول بقوله: «وعلى هذا التأويل يَحتمِل الكلام أن يكون مرادًا بالمغانم الثانية: المغانمُ الأولى، ويكون معناه عند ذلك: فأثابهم فتحًا قريبًا ومغانمَ كثيرةً يأخذونها، وعدكم الله -أيُّها القوم- هذه المغانم التي تأخذونها، وأنتم إليها واصلون عِدَةً، فجعل لكم الفتح القريب من فتح خَيْبَر.
ويَحْتمِل أن تكون الثانية غير الأولى، وتكون الأولى من غنائم خَيْبَر، والغنائم الثانية التي وعَدَهموها من غنائم سائر أهل الشرك سواهم».
ورجَّح (٢١/ ٢٨١) -مستندًا إلى الدلالة العقلية- أنها سائر المغانم التي غنموها بعد خَيْبَر، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن الله أخبر أنه عجَّل لهم هذه التي أثابهم من مسيرهم الذي ساروه مع رسول الله - ﷺ - إلى مكة، ولما عُلِم مِن صحة نيَّتهم في قتال أهلها؛ إذ بايعوا رسول الله - ﷺ - على أن لا يفرُّوا عنه، ولا شكّ أن التي عُجِّلَت لهم غير التي لم تُعَجَّل لهم».
(47) اختُلف في معنى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ على قولين: الأول: أنها غنيمة خَيْبَر، والمؤخَّرَة سائرُ فتوح المسلمين بعد ذلك الوقت إلى قيام الساعة.
الثاني: أنه الصلح الذي كان بيْن رسول الله - ﷺ - وبيْن قريش.
ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٢٨١) -مستندًا إلى دلالة الواقع- القول الأول، وهو قول مجاهد، وقتادة وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «وذلك أن المسلمين لم يَغْنَموا بعد الحُدَيبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحًا أقربَ من بيعتهم رسول الله - ﷺ - بالحُدَيبية إليها، من فتح خَيْبَر وغنائمها».

وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ.

أي: وكفَّ اللهُ أيدِيَ الكُفَّارِ عنكم؛ فلم يَنَلْكم سوءٌ منهم.(48)

وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.

أي: ولِيكونَ ذلك آيةً للمؤمِنينَ وعِبرةً لهم.

وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا.

أي: ولِيَهدِيَكم اللهُ –أيُّها المؤمِنونَ– طَريقًا في الدِّينِ مُستَقيمًا لا اعوِجاجَ فيه؛ بسَبَبِ انقيادِكم لأمْرِه، وقيامِكم بطاعتِه، ومُوافَقتِكم لِرَسولِه – ﷺ –.

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21).

(48) اختُلف في قوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ مَن هم الذين كُفَّت أيديهم عن المســـلمين؟ على قولين: الأول: هم اليهود، كفَّ الله أيديهم عن عيال الذين ساروا من المدينة مع رسول الله – ﷺ – إلى مكة.
الثاني: أنهم أسد وغَطَفان جاءوا لينصروا أهل خَيْبَر، فقذف الله في قلوبهم الرُّعب، فانصرفوا عنهم.
ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٢٨٢) –مســـتندًا إلى دلالة العقل– القول الأول، فقال معلِّلًا ترجيحه: «والذي قاله قتادة في ذلك عندي أشـبه بتأويل الآية، وذلك أنّ كفَّ اللهِ أيديَ المشـركين من أهل مكة عن أهل الحُدَيبية قد ذكره الله بعد هذه الآية في قوله: ﴿وهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، فعُلِم بذلك أن الكفَّ الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وكَفَّ أيْدِيَ النّاسِ عَنْكُمْ﴾ غير الكفّ الذي ذكر الله بعد هذه الآية في قوله: ﴿وهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾».

وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا.

أي: ووعَدكم اللهُ –أيُّها المُؤمنونَ– فَتْحَ بلادٍ أُخرى لم تَقدِروا على فَتْحِها الآنَ، قد حَفِظَها اللهُ لكم، وأعَدَّها لكم، ومَنَعَها عن غيرِكم، فيُيَسِّرُ لكم فتْحَها بعدَ حينٍ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ [الأنبياء: 105].

وقال سُبحانَه: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا [النور: 55].

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالقُدرةِ التَّامَّةِ على كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ أرادَه.

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22).

وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ.

أي: ولو قاتَلَكم الَّذين كَفَروا باللهِ لَانهَزَموا عنكم، وفَرُّوا منكم.

ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا.

أي: ثمَّ لا يجِدونَ وَلِيًّا يتولَّى أمْرَهم ويحفَظُهم ويَرعاهم، ولا نَصيرًا يَنصُرُهم ويُعينُهم عليكم؛ فهم مخذولونَ مَغلوبون.

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23).

سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ.

أي: طريقةَ اللهِ وعادتَه المعهودةَ الَّتي أجراها في السَّابِقينَ، بنصْرِ المؤمنينَ -مِن الرُّسلِ وأتْباعِهم- وهزيمةِ الكافرينَ، وإزهاقِ الباطلِ، وإظهارِ الحقِّ المبينِ.

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

أي: ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- لِعادةِ اللهِ الَّتي سنَّها في خَلْقِه تغييرًا.

كما قال تعالى: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا [الإسراء: 77].

وقال سُبحانَه: وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا [فاطر: 43].

# سُورةُ الفَتْحِ

## الآيات (24–26)

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26)

## غَرِيبُ الكَلِماتِ:

أَظْفَرَكُمْ: أي: أظْهرَكم ونَصرَكم، وأصلُ (ظفر): يدُلُّ على القَهرِ والفَوزِ والغَلَبةِ.

وَالْهَدْيَ: أي: ما يُهدَى إلى البَيتِ مِن الأنعامِ؛ وسُمِّيَ هَدْيًا لأنَّ مُهْدِيَه تقرَّبَ به إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ.

مَعْكُوفًا: أي: محبوسًا، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على حَبسٍ.

تَطَئُوهُمْ: أي: تَقتُلوهم وتُوقِعوا بهم، وأصلُه يدُلُّ على وَطءٍ بالقَدَمِ، واستُعمِلَ في معنى القَتلِ؛ لأنَّ مَن وَطِئَ الشَّيءَ برِجْلِه فقد استَقصى في إهلاكِه وإهانتِه.

مَعَرَّةٌ: أي: غُرمُ الكَفَّارةِ ومَسَبَّةُ الكُفَّارِ، وهي مَصدَرٌ مِيميٌّ مِن عَرَّه: إذا دهاه، وأصابَه بما يَكرَهُه ويَشُقُّ عليه؛ مِن ضُرٍّ أو غُرمٍ أو سُوءِ قالةٍ.

تَزَيَّلُوا: أي: تميَّزوا وتفرَّقوا، وأصلُ (زيل): يدُلُّ على التَّبايُنِ والمُفارَقةِ.

الْحَمِيَّةَ: أي: الأَنَفةَ والغَضَبَ، وأكثَرُ إطلاقِ ذلك على استِكبارٍ لا مُوجِبَ له، وأصلُها يدُلُّ على حَرارةٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24).

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ.

## سَبَبُ النُّزولِ:

1- عن سَلَمةَ بنِ الأكوَعِ -رَضِيَ اللهُ عنه- في قِصَّةِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، قال: ((قَدِمْنا الحُدَيبيَةَ مع رَسولِ اللهِ - ﷺ - ونحنُ أربَعَ عَشْرةَ مِئةً... ثمَّ إنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - دَعانا للبَيعةِ في أصلِ الشَّجَرةِ... ثمَّ إنَّ المُشرِكينَ راسَلونا الصُّلحَ حتَّى مشى بَعضُنا في بَعضٍ، واصطَلَحْنا... فلمَّا اصطَلَحْنا نحنُ وأهلُ مكَّةَ، واختَلَط بَعضُنا ببعضٍ؛ أتيتُ شَجَرةً فكَسَحْتُ شوكَها[49] فاضطجَعْتُ في أصلِها، قال: فأتاني أربعةٌ مِن المُشرِكينَ مِن أهلِ مَكَّةَ، فجعَلوا يَقعونَ في رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فأبغَضْتُهم، فتحوَّلتُ إلى شَجَرةٍ أُخرى، وعَلَّقوا سِلاحَهم واضْطَجَعوا، فبَيْنَما هم كذلك إذْ نادى مُنادٍ مِن أسفَلِ الوادي: يا لَلْمُهاجِرينَ! قُتِلَ ابنُ زُنَيمٍ! قال: فاخترَطتُ سَيفي،[50] ثمَّ شَدَدْتُ على أولئك الأربَعةِ وهم رُقودٌ، فأخَذْتُ سِلاحَهم،

---

(49) كَسَحْتُ شَوْكَها: أي قطعتُه، وكنستُ ما تحتَها منه.

يُنظر: ((كشف المُشْكِل)) لابن الجوزي (306/2)، ((المفهم)) للقرطبي (671/3)، ((شرح النووي على مسلم)) (176/12).

(50) اخترطتُ سيفي: أي: سللتُه مِن غِمْدِه.

يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (307/2).

فجعلْتُه ضِغْثًا[51] في يدي. قال: ثمَّ قُلتُ: والَّذي كرَّمَ وَجْهَ مُحمَّدٍ لا يَرفَعُ أحَدٌ مِنكم رأسَه إلَّا ضَربتُ الَّذي فيه عَيْناه! قال: ثمَّ جِئتُ بهم أسوقُهم إلى رَسولِ اللهِ – ﷺ –. قال: وجاء عَمِّي عامِرٌ برَجُلٍ مِنَ العَبَلاتِ[52] يُقالُ له: مِكْرَزٌ، يَقودُه إلى رَسولِ اللهِ – ﷺ – على فَرَسٍ مُجَفَّفٍ[53] في سَبعينَ مِنَ المُشرِكينَ، فنظَرَ إليهم رَسولُ الله – ﷺ – فقال: دَعوهم يَكُنْ لهم بَدءُ الفُجورِ وثِناه![54] فعفا عنهم رَسولُ اللهِ – ﷺ –، وأنزل اللهُ: وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ الآية كُلَّها)).[55]

---

(51) فجعلْتُه ضِغْثًا في يدي: الضِّغْثُ: الحُزمةُ والباقةُ مِن الشَّيءِ؛ كالبَقْلِ وما أشْبَهَه.
والمعنى: جعلتُ سلاحَهم في يدي مِثلَ الضِّغْثِ.
يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (307/2).

(52) العَبَلات: بطنٌ مِن بَني عبدِ شمسٍ، نُسبوا إلى أُمٍّ لهم تُسَمَّى: عبلةَ بنتَ عبيدٍ.
يُنظر: ((المفهم)) للقرطبي (671/3)، ((شرح النووي على مسلم)) (176/12، 177).

(53) المجفَّف مِن الخَيلِ: هو الَّذي عليه التَّجافيفُ، وهي كلُّ ما يَمنعُ وُصولَ الأذى إليه، فهو مِثلُ المُدَجَّجِ مِن الرِّجال، وهو الَّذي عليه السِّلاحُ التَّامُّ.
يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (307/2).

(54) بَدؤه: ابتداؤه، وثِنَاهُ: عودُه ثانيةً؛ فبَدءُ الفجورِ وثِناهُ، أي: أوَّلُه وآخِرُه.
يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (307/2)، ((النهاية)) لابن الأثير (225/1)، ((المفهم)) للقرطبي (671/3)، ((شرح النووي على مسلم)) (177/12).

(55) رواه مسلم (1807).

2- عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ ثمانينَ رَجُلًا مِن أهلِ مَكَّةَ هَبَطوا على رَسولِ اللهِ - ﷺ - مِن جَبَلِ التَّنعيمِ مُتسَلِّحينَ، يُريدونَ غِرَّةَ[56] النَّبيِّ - ﷺ - وأصحابِه، فأخَذَهم سَلَمًا[57] فاستَحْياهم،[58] فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ)).[59]

3- عن عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ المُزَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ - ﷺ - بالحُدَيبيَةِ في أصلِ الشَّجَرةِ الَّتي قال اللهُ تعالى في القُرآنِ، وكان يقَعُ مِن أغصانِ تلك الشَّجَرةِ على ظَهرِ رَسولِ اللهِ - ﷺ -، وعليُّ بنُ أبي طالِبٍ وسُهَيلُ بنُ عَمرٍو بيْنَ يدَيه. فقال رَسولُ اللهِ - ﷺ - لِعَليٍّ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: اكتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. فأخَذَ سُهَيلُ ابنُ عَمرٍو بيَدِه، فقال: ما نَعرِفُ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ! اكتُبْ في قَضِيَّتِنا ما نَعرِفُ. قال: اكتُبْ باسْمِك اللَّهُمَّ. فكَتَب: هذا ما صالَحَ عليه مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ - ﷺ - أهلَ مَكَّةَ. فأمسَكَ سُهَيلُ بنُ عَمرٍو بيَدِه، وقال: لقد ظلَمْناك إنْ كُنتَ رَسولَه! اكتُبْ

---

(56) أي: يَلتمِسونَ غفلتَهم؛ لِيتمكَّنوا منهم، والغِرَّةُ: الغفلةُ.

يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (768/2).

(57) فأخذهم سَلَمًا: بفتح السِّينِ واللَّامِ، أي: أسرى، والسَّلَمُ بالفتح: الأسيرُ؛ لأنَّه أسلَمَ وترَك.

وضُبِط أيضًا بإسكانِ اللَّامِ مع كسرِ السِّينِ وفَتحِها، ومعناه: الصُّلحُ.

يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (2/ 217).

ويُنظر: أيضًا: ((النهاية)) لابن الأثير (2/ 394)، ((شرح النووي على مسلم)) (12/ 187).

(58) استَحْياهم: استَبْقاهم ولم يَقتُلْهم.

يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (3/ 308)، ((جامع الأصول)) لابن الأثير (2/ 359).

(59) رواه مسلم (1808).

في قَضِيَّتِنا ما نَعرِفُ. فقال: اكتُبْ هذا ما صالَحَ عليه مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ. وأنا رَسولُ اللهِ! فكَتَب، فبَيْنا نحنُ كذلك إذ خرَجَ علينا ثلاثونَ شابًّا عليهم السِّلاحُ، فثاروا في وُجوهِنا، فدعا عليهم رَسولُ اللهِ – ﷺ –، فأخَذَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بأبصارِهم، فقَدِمْنا إليهم فأخَذْناهم، فقال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: هل جِئتُم في عَهدِ أحَدٍ، أو هل جَعَل لكم أحَدٌ أمانًا؟ فقالوا: لا. فخلَّى سَبيلَهم، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا [الفتح: 24]))[60].

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي كَفَّ أيديَ المُشرِكينَ عنكم –أيُّها المُؤمِنونَ– وأيديَكم عنهم، وأنتم في الحُدَيبيَةِ مِن بَعدِ أن أظْهرَكم ونَصرَكم عليهم.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ [المائدة: 11].

---

(60) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (11511)، وأحمدُ (16800) واللفظُ له.
قال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (148/6): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (5/ 351)، وصَحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (27/ 355).

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا.

أي: وكان اللهُ بما تعمَلونَ -أيُّها المُؤمنونَ والمُشرِكونَ- بَصيرًا؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ يَعْمَلُونَ على مَعنى الغَيْبةِ، أي: كانَ اللهُ بما عمِل الكفَّارُ مِن كفرِهم وصدِّهم عن المسجدِ بصيرًا.[61]

2- قِراءةُ تَعْمَلُونَ على معنى الخِطابِ، أي: أنتم وهم.[62]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25).

---

(61) قرأ بها أبو عَمرٍو.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجوزي (2/375).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 674).
(62) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجوزي (2/375).
ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 674).

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أي: هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ هم الَّذين كَفَروا بالحَقّ، وصَدُّوكم –أيُّها المُؤمِنونَ– عن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ.

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خرَجْنا مع النَّبيِّ – ﷺ – مُعتَمِرينَ، فحالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ دونَ البَيتِ، فنَحَرَ رَسولُ اللهِ – ﷺ – بُدْنَه، وحَلَق رَأْسَه)).(63)

وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ.

أي: وهم مَن مَنَع الهدْيَ عن الوُصولِ إلى مَحَلّ ذَبْحِها في مَكَّةَ.(64)

وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

---

(63) رواه البخاريُّ (1812) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (1230).

(64) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٨٢) لـ ﴿أنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ احتمالين: الأول: «يحتمل أن يعمل فيها الصَّدُّ».
ثم وجَّهه بقوله: «كأنه تعالى قال: وصدُّوا الهَدْي كراهة أن، أو عَنْ أن».
الثاني: «أن يعمل فيها العكف».
ثم وجَّهه بقوله: «فيكون ﴿أنْ﴾ مفعولًا من أجله، أي: الهَدي المحبوس لأجل أن يَبْلُغَ محِلَّه».
ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا هو حبْس المسلمين، وإلا فحبْس المشركين ليس لأجل أن يبلغ الهَدْي محِلَّه».

أي: ولَولا رِجالٌ ونِساءٌ مِنَ المُستَضعَفينَ الَّذين يَكتُمونَ إيمانَهم في مَكَّةَ، مِمَّن لا تَعلَمونَ بشَأنِهم؛ أن تَقتُلوهم إذا دخَلْتُم مكَّةَ فاتِحينَ، فيَنالَكم بسَبَبِ قَتْلِهم سوءٌ مِن إثمٍ أو مَغْرَمٍ أو غَمٍّ أو مَلامةٍ- لَأَذِنَ اللهُ لكم في فَتحِ مكَّةَ.(65)

---

(65) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٨٣) في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَطَؤُوهُم﴾ احتمالين: الأول: «أن تكون بدلًا مِن ﴿رِجالٌ﴾».

ثم وجَّهه بقوله: «كأنه تعالى قال: ولولا قومٌ مؤمنون أن تطؤوهم.

أي: لولا وطْؤُكم قومًا مؤمنين، فهو على هذا في موضع رفع».

الثاني: «أن يكون في موضع نصب بدلًا من الضمير في قوله تعالى: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾».

ثم وجَّهه بقوله: «كأنه تعالى قال: لم تعلموا وطْأَهم أنه وطْءُ مؤمنين».

اختُلف في معنى: «المعرَّة» في هذه الآية على قولين: الأول: أنها الإثم.

الثاني: أنها غُرْمُ الدِّيَة.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٣٠٦) -مستندًا إلى القرآن- القول الثاني، فقال: «وإنما المعنى: فتصيبَكم من قِبلِهم معرَّةٌ تُعَرُّون بها، يَلْزَمُكم من أجلها كفارةُ قتل الخطأ، وذلك عِتْقُ رقبةٍ مؤمنةٍ مَن أطاق ذلك، ومَن لم يُطِق فصيام شهرين».

وعلَّل ذلك بقوله: «لأن الله إنما أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجر منها، ولم يكن قاتلُه عَلِم إيمانه الكفارة دون الدِّيَة، فقال: ﴿فَإِنْ كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، ولم يوجِب على قاتله خطأً دِيَةً، فلذلك قلنا: عُنِيَ بالمعَرَّة في هذا الموضع: الكفارة».

وانتقد ابنُ عطية (٧/ ٦٨٤) القول الأول والثاني قائلًا: «وهذان ضعيفان؛ لأنه لا إثم ولا دية في قَتْل مؤمن مستور الإيمان من أهل الحرب».

ثم نقل قول ابن جرير: أنها الكفارة.

ونقل عن منذر: «المَعَرَّة: أن يعيبهم الكفار، ويقولوا: قتلوا أهل دينهم».

ونقل عن بعض المفسرين: «هي الملام، والقول في ذلك، وتألم النَّفْس منه في باقي الزمان».

ثم علَّق على هذه الأقوال بقوله: «وهذه أقوالٌ حسان».

لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ.

أي: مَنَعَكم اللهُ مِن قِتالِ كُفَّارِ قُرَيشٍ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ لِيُدخِلَ اللهُ في الإسلامِ مِن أهلِ مكَّةَ مَن يَشاءُ منهم قبْلَ أنْ تَدخُلوها فاتِحينَ.(66)

لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

أي: لو تَمَيَّزَ مَنْ آمَنَ في مكَّةَ عن كُفَّارِها وتفرَّقوا عنهم، لَعَذَّبْنا أولئك الكُفَّارَ بأيديكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا في الدُّنيا بالقَتلِ أو غيرِه، فلا يَلحَقُ أولئك المؤمنينَ في مكَّةَ ضَرَرٌ أو مَكروهٌ مِن قِبَلِكم.

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26).

(66) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٨٤) للام في قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ﴾ احتمالين: الأول: «أن تتعلق بمحذوف من القول، تقديره: لولا هؤلاء لدخلتم مكة، لكن شرَّفنا هؤلاء المؤمنين بأن رحمناهم ودفعنا بسببهم عن مكة لِيُدْخِلَ اللَّهُ تعالى».

ثم وجَّهه بقوله: «أي: ليبيِّن للناظر أنّ الله يُدخِل في رحمته مَن يشاء، أو أي: لِيَقَع دخولهم في رحمة الله تعالى ودفعه عنهم».

الثاني: «أن تتعلق بالإيمان المتقدِّم الذِّكر».

ثم وجَّهه بقوله: «فكأنه تعالى قال: ولولا قوم مؤمنون آمنوا لِيُدْخل الله في رحمته».

غير أنه انتقده -مستندًا إلى لفظ الآية- قائلًا: «وهذا مذكور، لكنه ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَن يَشَاءُ﴾ يضعف هذا التأويل».

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ.

أي: إذ وَضع كُفَّارُ قُرَيشٍ في قُلوبِهم أنَفَةَ الجاهِليَّةِ واستِكبارَها وأخلاقَها الشَّنيعةَ، فأبَوا أن يُكتَبَ في كِتابِ الصُّلحِ يومَ الحُدَيبيَةِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وأن يُكتَبَ فيه: مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ، ومَنَعوا المؤمِنينَ القادِمينَ للعُمرةِ مِن دُخولِ مَكَّةَ.

عن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ قُرَيشًا صالَحوا النَّبيَّ - ﷺ -، فيهم سُهَيلُ بنُ عَمرٍو، فقال النَّبيُّ - ﷺ - لِعَليٍّ: اكتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. قال سُهَيلٌ: أمَّا باسمِ اللهِ فما نَدري ما بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ! ولكِنِ اكتُبْ ما نَعرِفُ: باسْمِك اللَّهُمَّ. فقال: اكتُبْ مِن مُحمَّدٍ رَسولِ اللهِ. قالوا: لو عَلِمْنا أنَّك رَسولُ اللهِ لَاتَّبَعْناك، ولكِنِ اكتُبِ اسْمَك واسْمَ أبيك. فقال النَّبيُّ - ﷺ -: اكتُبْ: مِن مُحمَّدِ بنِ عبدِاللهِ. فاشترَطوا على النَّبيِّ - ﷺ - أنَّ مَن جاءَ مِنْكم لم نَرُدَّه عليكم، ومَن جاءَكم مِنَّا رَدَدْتُموه علينا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، أنكتُبُ هذا؟! قال: نَعَمْ؛ إنَّه مَن ذَهَب مِنَّا إليهم فأبعَدَه اللهُ! ومَن جاءَنا منهم سيَجعَلُ اللهُ له فَرَجًا ومَخْرَجًا)).(67)

(67) رواه مسلم (1784).

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

أي: فلمَّا فَعَل المُشرِكونَ ما فَعَلوا مِن ذلك، أنزَلَ اللهُ الطُّمَأنينةَ والرِّضا والصَّبرَ والثَّباتَ على رَسولِه، وعلى أصحابِه المؤمنينَ.

وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى.

أي: وألزَمَ اللهُ رَسولَه وأصحابَه المؤمنينَ كَلِمةَ لا إلهَ إلَّا اللهُ، الَّتي يَتَّقونَ بها سَخَطَه وعَذابَه، فوَفَّقَهم لالتِزامِها قَولًا وعَمَلًا، والقيامِ بأداءِ حُقوقِها، فلا يَنفَكُّونَ عنها أبَدًا.

وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا.

أي: وكانوا أحقَّ بتلك الكَلِمةِ مِنَ الَّذين كَفَروا، وهم أهلُها مِن دُونِهم.

وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا.

أي: إنَّ اللهَ تعالى متَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ التَّامِّ بكُلِّ شَيءٍ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، ومِن ذلك عِلْمُه بمَن يَستَحِقُّ فَضْلَه وإنعامَه.

# سُورةُ الفَتْحِ

## الآيتان (27–28)

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27)

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28)

## غَريبُ الكَلِماتِ:

**الرُّؤْيَا**: ما يُرى في المنامِ، وأصلُ (رأى): يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27).

**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ.**

أي: لقد حقَّق اللهُ رُؤيا رَسولِه مُحمَّدٍ - ﷺ -، الَّتي رآها في مَنامِه؛ أنَّه يَدخُلُ هو وأصحابُه المَسجِدَ الحَرامَ آمِنينَ.

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ، ومَرْوانِ بنِ الحَكَمِ في قِصَّةِ صُلحِ الحُدَيبِيَةِ، قالا: ((... قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: فأتَيتُ نبيَّ اللهِ - ﷺ -، فقُلتُ: ألَسْتَ نبيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألَسْنا على الحَقِّ، وعَدُوُّنا على الباطِلِ؟ قال: بلى. قلتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دِينِنا إذًا؟! قال: إنِّي رَسولُ اللهِ، ولَستُ أعصِيه، وهو ناصِري. قلتُ: أوَلَيس كنتَ تُحَدِّثُنا أنَّا سنأتي البَيتَ فنَطُوفُ به؟! قال: بلى. فأخبَرْتُك أنَّا نأتيه العامَ؟ قال: قُلتُ: لا. قال: فإنَّك آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به. قال: فأتَيتُ أبا بَكرٍ، فقُلتُ: يا أبا بَكرٍ، أليسَ هذا نَبيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال: بلى. قُلتُ: ألَسْنا على الحَقِّ وعَدُوُّنا على الباطِلِ؟ قال: بلى. قُلتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في دينِنا إذًا؟! قال: أيُّها الرَّجُلُ، إنَّه لَرَسولُ اللهِ - ﷺ -، وليس يَعصي رَبَّه، وهو ناصِرُه.

فاستَمْسِكْ بغَرْزِه؛[68] فواللهِ إنَّه على الحَقّ. قلتُ: أليس كان يُحَدِّثُنا أنَّا سنأتي البَيت ونَطُوفُ به؟! قال: بلى. أفأخبَرَك أنَّك تأتيه العامَ؟! قُلتُ: لا. قال: فإنَّك آتِيه ومُطَّوِّفٌ به)).[69]

لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ.

أي: أُقسِمُ لَتدخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللهُ وأنتم آمِنونَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ.

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - خرَجَ مُعتَمِرًا، فحالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ بَيْنَه وبيْنَ البَيتِ، فنَحَر هَدْيَه، وحَلَقَ رَأسَه بالحُدَيبِيَةِ، وقاضاهم[70] على أن يَعتَمِرَ العامَ المُقبِلَ، ولا يَحمِلَ سِلاحًا عليهم إلَّا سُيوفًا، ولا يُقيمَ بها إلَّا ما أحَبُّوا، فاعتَمَر مِنَ العامِ المُقبِلِ، فدخَلَها كما كان صالحَهم، فلمَّا أقام بها ثلاثًا أمَرُوه أن يَخرُجَ، فخرَجَ)).[71]

---

(68) المعنى: تمسَّكْ بأمْرِه ولا تُخالِفْه، كما يتمسَّكُ المرءُ بالغَرْزِ أي: بِركابِ الرَّاكِبِ (وهو ما يضعُ فيه قدمَه)، فلا يُفارِقُه، بلْ يَسيرُ بسَيرِه.

يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (57/4)، ((النهاية)) لابن الأثير (359/3)، ((فتح الباري)) لابن حجر (346/5)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطلَّاني (450/4).

(69) رواه البخاري (2731).

(70) قاضاهم: أي: صالحَهم.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلَّاني (381/6).

(71) رواه البخاري (2701).

مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ.

أي: وبَعضُكم سيَحلِقُ شَعرَ رأسِه، وبَعضُكم سيُقَصِّرُه.[72]

---

(72) ذكر ابنُ عطية (ط: دار الكتب العلمية ٥/ ١٣٩) اختلافًا «في معنى الاستثناء في هذه الآية؛ فقال بعض المتأوِّلين: هو استثناءٌ من المَلَك المُخْبِر للنبي – ﷺ – في نومه، فذكر الله تعالى مقالته كما وقعت.

وقال آخرون: هو أخْذٌ مِن الله تعالى عباده بأدبه في استعمال الاستثناء في كل فعل يوجب وقوعه، كان ذلك مما يكون ولا بُدَّ، أو كان مما قد يكون وقد لا يكون.

وقال بعض العلماء: إنما استثنى من حيث كلُّ واحد من الناس متى ردَّ هذا الوعد إلى نفسه أمكن أن يتم هذا الوعد فيه وألا يتمَّ؛ إذ قد يموت الإنسان أو يمرض أو يغيب، وكلّ واحد في ذاته محتاج إلى الاستثناء، فلذلك استثنى – عز وجل – في الجملة، إذ فيهم ولا بُدَّ من يموت.

وقال آخرون: استثنى لأجل قوله تعالى: ﴿آمِنِينَ﴾، لا لأجل إعلامه بالدخول، فكأن الاستثناء مؤخَّر عن موضعه».

ثم علَّق على القول الأخير بقوله: «ولا فرق بين الاستثناء مِن أجل الأمن، أو من أجل الدخول؛ لأن الله –تبارك وتعالى– قد أخبر بهما، ووقعت الثقة بالأمرين، فالاستثناء مِن أيّهما كان هو استثناءٌ من واجب».

ثم نقل عن قوم أنّ: ﴿إِنْ﴾ بمعنى: إذ، ثم وجَّهه بقوله: «فكأنه تعالى قال: إذ شاء اللهُ».

غير أنه استدرك عليه قائلًا: «وهذا حسنٌ في معناه، لكن كون ﴿إِنْ﴾ بمعنى: إذ؛ غير موجود في لسان العرب».

ثم علَّق بقوله: «وللناس بعد في هذا الاستثناء أقوالٌ مخلّطة غير هذه لا طائل فيها اختصرتها».

ووجَّه ابنُ تيمية (٦/ ٣٣) قول من قال: ﴿إِنْ﴾ بمعنى: إذ.

بقوله: «ومقصوده بهذا تحقيق الفعل بـ ﴿إِن﴾ كما يتحقق مع: إذ، وإلا فـ: إذ ظرف توقيت، و﴿إِن﴾ حرف تعليق».

ثم ذكر (٦/ ٣٣ – ٣٤) أن «طائفة من الناس فرُّوا من هذا المعنى –أي: معنى تحقيق المشيئة–، وجعلوا الاستثناء لأمر مشكوك فيه، فقال الزَّجّاج: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي: أمركم الله به.

وقيل: الاستثناء يعود إلى الأمن والخوف، أي: لتدخلنّه آمنين، فأما الدخول فلا شكّ فيه.

وقيل: لتدخلنّ جميعكم أو بعضكم؛ لأنه علم أنّ بعضهم يموت، فالاستثناء لأنهم لم يدخلوا جميعهم».

ثم انتقد (٦/ ٣٤) هذه الأقوال –مستندًا إلى دلالة اللفظ، وإلى الدلالة العقلية– قائلًا: «كل هذه الأقوال وقع أصحابها فيما فرُّوا منه، مع خروجهم عن مدلول القرآن، فحرَّفوه تحريفًا لم ينتفعوا به، فإنّ قول مَن قال: أي: أمركم الله به، هو سبحانه قد علم هل يأمرهم أو لا يأمرهم، فعلّمه بأنه سيأمرهم بدخوله كعلمه بأن سيدخلوا، فعلَّقوا الاستثناء بما لم يدل عليه اللفظ، وعِلْمُ الله متعلق بالمُظْهَر والمضمَر جميعًا.

وكذلك أمنهم وخوفهم، هو يعلم أنهم يدخلون آمنين أو خائفين، وقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علْمه بأنهم يدخلون آمنين، فكلاهما لم يكن فيه شكّ عند الله، بل ولا عند رسوله.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حلَق رَسولُ اللهِ – ﷺ –، وحلَق طائِفةٌ مِن أصحابِه، وقصَّرَ بَعْضُهم. قال عبدُ اللهِ: إنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: رَحِمَ اللهُ المحلِّقينَ –مرَّةً أو مرَّتَينِ– ثمَّ قال: والمُقَصِّرينَ)).(73)

لَا تَخَافُونَ.

أي: ولا يَحصُلُ لكم خَوفٌ.

فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا.

أي: فعَلِمَ اللهُ ما لم تَعلَموه أنتم –أيُّها المُؤمِنونَ– مِنَ المصالِحِ والمَنافِعِ في مَنْعِكم مِن دُخولِ مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، وتأخيرِ دُخولِكم إلى العامِ الَّذي يَليه.

---

وقول مَن قال: جميعهم أو بعضهم.

يُقال: المُعلّق بالمشــيئة دخول مَن أريد باللفظ، فإن كان أراد الجميع فالجميع لا بُدَّ أن يدخلوه، وإن أريد الأكثر كان دخولهم هو المعلّق بالمشيئة، وما لم يرد لا يجوز أن يعلق بــ ﴿إن﴾، وإنما علّق بــ ﴿إن﴾ ما سيكون؛ وكان هذا وعدًا مجزومًا به، ولهذا لما قال عمر للنبي – ﷺ – عام الحُدَيبية: ألم تكن تحدّثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، قلت لك: إنك تأتيه هذا العام؟».

قال: لا.

قال: «فإنك آتيه، ومُطَوّف به»».

(73) رواه البخاريُّ (1727)، ومسلمٌ (1301) واللَّفظُ له.

فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا.

أي: فقدَّر اللهُ لكم قبْلَ دُخولِكم المَسجِدَ الحَرامَ في العامِ التَّالي فَتحًا قَريبًا، وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28).

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ.

أي: اللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا بالعِلمِ النَّافِعِ المُشتَمِلِ على بَيانِ الحَقِّ، وبَعَثه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِلِ على الأعمالِ الصَّالحةِ، وشرائِعِ الدِّينِ الكامِلةِ.

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

أي: أرسَلَ اللهُ رَسولَه بالهُدى ودِينِ الحَقِّ؛ لِيُعلِيَ اللهُ الإسلامَ على جَميعِ الأديانِ الأُخرى.

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((لا يَذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتَّى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنْ كُنتُ لَأظُنُّ حينَ أنزَلَ اللهُ: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة: 33] أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيَكونُ مِن ذلك ما شاء اللهُ!)).[74]

---

(74) رواه مسلم (2907).

وعن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((إنَّ اللهَ زَوَى[75] لِيَ الأرضَ، فرأيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي منها)).[76]

وعن تَميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[77] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ)).[78]

وعن خبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ - ﷺ -، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدةً[79] له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلْنا له: ألَا تَستنصِرُ لنا، ألَا تَدْعو اللهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينِه!

---

(75) أي: قبَضَها وجمَعَها لي.
يُنظر: ((معالم السنن)) للخطَّابي (339/4)، ((المفهم)) للقرطبي (216/7)، ((شرح النووي على مسلم)) (13/18).
(76) رواه مسلم (2889).
(77) المَدَر: البيتُ المبنيُّ مِن الطِّينِ، والوَبَر: مِن الشَّعرِ، والعربُ تُعَبِّرُ عن أهل الحضرِ بأهلِ المَدَرِ، وعن أهلِ الباديةِ بأهلِ الوَبَرِ؛ لأنَّهم يتَّخِذون بُيوتَهم مِن الوَبَرِ.
يُنظر: ((المفهم)) للقرطبي (286/7)، ((فتح الباري)) لابن حجر (352/6).
(78) أخرجه أحمد (16957) واللَّفظُ له، والحاكم (8326)، والبيهقي (19090).
صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ الشَّيخَينِ، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (17/6): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).
وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (158): (على شَرطِ مُسلِمٍ).
وصَحَّح إسنادَه على شرطِ مُسلِمٍ: شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (28/ 155).
(79) أي: جعَلها وِسادةً (أي: مِخَدَّةً) له تحتَ رأسِه، والبُرْدةُ: كِساءٌ أسْوَدُ مربَّعٌ.
يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (447/2) و (550/2)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (96/10).

ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستَعجِلونَ!)).(80)

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

أي: ويَكفي أن يَكونَ اللهُ شاهِدًا على أنَّه مُظهِرٌ دِينَه، وعلى أنَّ مُحمَّدًا رَسولُه، - ﷺ -.(81)

---

(80) رواه البخاري (3612).

(81) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٨٨) أن قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ «يحتمل معنيين: أحدهما: شاهدًا عندكم بهذا الخبر ومُعْلِمًا به.
والثاني: شاهدًا على هؤلاء الكفار المنكرين أمر محمد - ﷺ - الرّادّين في صدره، ومعاقبًا لهم بحكم الشهادة».
ثم وجَّه الثاني بقوله: «فالآية -على هذا- وعيدٌ للكفار الذين شاحّوا في أن يكتب: محمد رسول الله - ﷺ -، فردَّ الله -تبارك وتعالى- عليهم بهذه الآية كلّها».

# سُورةُ الفَتْحِ

## الآية (29)

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

(29)

## غَرِيبُ الكَلِماتِ:

سِيمَاهُمْ: أي: عَلاماتُهم وآثارُهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على الأثَرِ والمَعْلَمِ.

شَطْأَهُ: أي: فِراخَه وصِغارَه، وشَطءُ الزَّرعِ: فُروخُ الزَّرعِ، وهو ما خرَجَ منه وتفرَّع في شاطِئَيه وجانِبَيه، وشَطءُ النَّباتِ: ما خرَجَ مِن حَولِ الأصلِ.

فَآَزَرَهُ: أي: أعانَه وقوَّاه، وأصلُ (أزر): يدُلُّ على القُوَّةِ والشِّدَّةِ.

فَاسْتَغْلَظَ: أي: غَلُظَ وبلَغَ غايةَ قُوَّته، والغِلْظةُ ضِدُّ الرِّقَّةِ.

سُوقِهِ: أي: أُصولِه، جمعُ ساقٍ: وهو العُودُ والحامِلُ، وأصلُ (سوق): يدُلُّ على حَدْوِ الشَّيءِ، وسُمِّيَت السَّاقُ بذلك؛ لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عليها.

لِيَغِيظَ: الغَيظُ: أشدُّ الغضَبِ، وهو الحرارةُ الَّتي يجِدُها الإنسانُ مِن فوَرانِ دَمِ قَلبِه، وأصلُه يدُلُّ على كَربٍ يَلحَقُ الإنسانَ مِن غَيرِه.

## تَفسيرُ الآيةِ:

**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29).**

**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ.**

**محمَّدٌ رسولُ الله حقًّا بلا رَيْبٍ.**[82]

---

(82) ذكر ابنُ عطية (٧/ ٦٨٨) في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ قولين: الأول: «قال جمهور الناس: هو ابتداءٌ، وخبر استوفى فيه تعظيم منزلة النبي - ﷺ -، وقوله تعالى: ﴿والَّذِينَ مَعَهُ﴾ ابتداءٌ وخبرُه: ﴿أشِدّاءُ﴾، و﴿رُحَماءُ﴾ خبر ثانٍ».

الثاني: «قال قوم من المتأوِّلين: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ابتداء، و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ صفةٌ له، و﴿الَّذِينَ﴾ عطف عليه، و﴿أشِدّاءُ﴾ خبر عن الجميع، و﴿رُحَماءُ﴾ خبر بعد خبر».

ثم وجَّههما بقوله: «ففي القول الأول اختصَّ النبيُّ - ﷺ - بوصفه، وهؤلاء بوصفهم، وفي القول الثاني اشترك الجميع في الشدة والرحمة».

ثم رجَّح القول الأول مستندًا إلى أحوال النزول قائلًا: «والأول عندي أرجح؛ لأنه خبرٌ مضادٌّ لقول الكفار: لا نكتب: محمد رسول الله».

وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.

أي: وأصحابُ مُحمَّدٍ الَّذين معه يُظهِرونَ لِمَن خالَفَ دِينَهم الشِّدَّةَ والصَّلابةَ، ولِمَن وافقَه الرَّحمةَ والرَّأفةَ واللِّينَ.

كما قال تعالى: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [المائدة: 54].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً [التوبة: 123].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ الله - ﷺ -: ((مَثَلُ المُؤمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتَكى منه عُضوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)).[83]

وعن أبي موسى الأَشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبِيِّ - ﷺ - قال: ((المُؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشَبَّك بيْنَ أصابِعِه)).[84]

تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا.

أي: تَرى أصحابَ مُحمَّدٍ مُداوِمينَ على صَلاتِهم، مُكثِرينَ منها؛ فتَراهم راكِعينَ وساجِدينَ.

---

(83) رواه البخاريُّ (6011)، ومسلمٌ (2586) واللَّفظُ له.

(84) رواه البخاريُّ (2446) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (2585).

عن المُخارِقِ، قال: ((خَرَجْنا حُجَّاجًا، فلمَّا بَلَغْنا الرَّبَذَةَ[85] قُلتُ لأصحابي: تقَدَّموا، وتخَلَّفْتُ، فأتيتُ أبا ذَرٍّ وهو يُصَلِّي، فرأيتُه يُطيلُ القِيامَ، ويُكثِرُ الرُّكوعَ والسُّجودَ، فذكَرتُ ذلك له، فقال: ما ألَوتُ أن أُحسِنَ؛ إنِّي سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: مَن رَكَع رَكعةً أو سَجَد سَجدةً، رُفِع بها دَرَجةً، وحُطَّت عنه بها خَطيئةٌ)).[86]

يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا.

أي: يَطلُبونَ أن يَتفضَّلَ اللهُ عليهم برَحمتِه، فيُدخِلَهم جنَّتَه، وأن يَرضى عنهم؛ فهذا مقصودُهم.

كما قال تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: 71، 72].

---

(85) الرَّبَذة: قَريةٌ كانت عامرةً في صَدْرِ الإسلامِ، وبها قبرُ أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ وجماعةٍ مِن الصَّحابةِ، تقعُ شرقَ المدينةِ.
يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (1/ 215).

(86) أخرجه أحمد (21308) واللَّفظُ له، والطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (2730)، والبيهقي (4883).
قال المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (1/194): (هو بمجموعِ طُرُقِه حَسَنٌ أو صحيحٌ).
وذكر الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (2/251) أنَّه رُوِيَ بنحوِه بأسانيدَ بعضُها رجالُه رجالُ الصَّحيحِ.
وصحَّحه لغيرِه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (392)، وصحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (35/ 237).

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ.

أي: عَلامةُ أصحابِ مُحمَّدٍ كائِنةٌ في وُجوهِهِم؛ مِن أثَرِ سُجُودِهم في صَلاتِهم.(87)

ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ.

---

(87) اختُلف في معنى: «السِّيما» في هذه الآية على أقوال: الأول: أنها علامة يجعلها الله في وجوه المؤمنين يوم القيامة، من أثر سجودهم في الدنيا.

الثاني: أنها السَّمْت الحسن.

الثالث: أنها أثرٌ يكون في وجوه المصلين؛ مثل أثر السهر الذي يظهر في الوجه.

الرابع: أنها آثار تُرى في الوجه من ثَرى الأرض، أو نَدى الطهور.

والأقوال الثلاثة الأخيرة على أنها علامة في الدنيا.

وجمع ابنُ جرير (٢١/ ٣٢٦) –بدلالة عدم التخصيص– بين الأقوال كلّها بقوله: «إن الله –تعالى ذكره– أخبرنا أنّ سيما هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، ولم يَخُصَّ ذلك على وقت دون وقت، وإذ كان ذلك كذلك فذلك على كل الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يُعرفون به في الدنيا آثارَ الإسلام، وذلك خشوعه وهدْيُه وزهده وسَمْتُه، وآثارُ عناء فرائضه وتطوُّعه، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يُعرفون به، وذلك الغُرَّة في الوجه والتَّحْجيلُ في الأيدي والأرْجُل من أثر الوضوء، وبياض الوجوه من أثر السجود».

وعلّق ابنُ عطية (٧/ ٦٨٩) على القول الأول بقوله: «كما يجعل غُرَّةً من أثر الوضوء... الحديث، ويؤيّد هذا التأويل اتصال القول بقوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ ورِضْوانًا﴾، كأنه تعالى قال: علامتهم في تحصيلهم الرضوان يوم القيامة سيماهم في وجوههم من أثَر السجود».

وعلّق على القول الثاني بقوله: «وهذه حالة مكثري الصلاة؛ لأنها تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وتُقِلُّ الضحك، وتردُّ النَّفس بحالة تخشع معها الأعضاء».

ونقل (٧/ ٦٩٠) عن عطاء بن أبي رباح، والربيع بن أنس أن «السِّيما»: «حُسْنٌ يعتري وجوه المصلين».

ثم وجَّهه بقوله: «وذلك أنّ الله تعالى يجعل لها في عين الرّائي حُسْنًا تابعًا للإجلال الذي في نفسه، ومتى أجلَّ الإنسان أمرًا حَسُنَ عنده منظره، ومن هذا الحديث الذي في الشّهاب: «مَن كثُرت صلاته بالليل حَسُن وجْهُه بالنهار»».

أي: هذا الَّذي وُصِفوا به هو وَصْفُهم في التَّوراةِ.(88)

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ.

أي: وصِفَتُهم في الإنجيلِ أنَّهم كزَرعٍ أخرَجَ فِراخَه، فنَبَتَتْ في جَوانِبِه.

فَآَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ.

أي: فقوَّى الزَّرعَ فَرْخُه، فغَلُظَ الزَّرعُ، وتَناهَى طُولُه، وبَلَغ غايةَ قُوَّتِه، وقام على أُصولِه.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [الأنفال: 62، 63].

يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ.

أي: يُثيرُ هذا الزَّرعُ الَّذي استَغلَظَ واستَوَى على سُوقِه إعجابَ الَّذين زرَعوه.

---

(88) اختُلف في هذين المثَلَين على قولين: الأول: أنّ مثلهم في التوراة بأن سيماهم في وجوههم، ومثَلُهم في الإنجيل كَزَرْعٍ أخرج شَطْأَه.

الثاني: هذان المثلان في التوراة والإنجيل واحد.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٣٢٩) –مستندًا إلى أقوال السلف، وإلى اللغة– القول الأول، وهو قول الضَّحّاك، وقتادة، ومقاتل، وابن زيد.

وانتقد القول الثاني، فقال: إن «القول لو كان كما قال مجاهد مِن أنّ مثَلَهم في التوراة والإنجيل واحد لكان التنزيل: ومثلهم في الإنجيل وكَزَرْعٍ أخرج شَطْأَه، فكان تمثيلهم بالزرع معطوفًا على قوله: ﴿سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِن أَثَرِ السُّجُودِ﴾ حتى يكون ذلك خبرًا عن أنّ ذلك مَثلهم في التوراة والإنجيل، وفي مجيء الكلام بغير واوٍ في قوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ دليلٌ بيِّنٌ على صحة ما قلنا، وأن قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ خبرٌ مبتدأٌ عن صفتهم التي هي في الإنجيل دون ما في التوراة منها».

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ.

أي: إنَّما جَعَل اللهُ تعالى أصحابَ نَبيِّه بتلك الصِّفةِ، فكَثَّرهم وقوَّاهم؛ لِيَغيظ بهم الكُفَّارَ حينَ يَرونَ كَثرتَهم وقُوَّتَهم.

كما قال تعالى: وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ [آل عمران: 119].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [النساء: 51 – 54].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ [التوبة: 120].

وقال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا [الحج: 72].

وقال عزَّ شأنُه: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ [المنافقون: 7].

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.

أي: وَعَد اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ مِن أصحابِ نَبيِّه أن يَنالوا مَغفِرةً لِذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويتجاوزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ووَعَدَهم أن يَنالوا أجرًا عَظيمًا.

كما قال الله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ [المائدة: 9].

وقال سُبحانَه: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: 100].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ – ﷺ –: ((لا تَسُبُّوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحَدَكم أنفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلَغَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفَه!))[89] [90].

---

(89) المُدُّ: رُبعُ الصَّاعِ.
والنَّصِيفُ: نِصْفُه.
والمعنى: أنَّ جُهْدَ المُقِلِّ منهم واليَسيرَ مِن النَّفَقةِ الَّذي أنفقوه في سبيلِ الله مع شِدَّةِ العَيشِ والضِّيقِ الَّذي كانوا فيه، أَوْفى عند الله وأزكى مِن الكثيرِ الَّذي يُنفِقُه مَن بَعْدَهم.
يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عُبَيْدٍ القاسمِ بنِ سلَّام (1/379)، ((معالم السنن)) للخَطَّابي (4/308)، ((كشف المُشْكِل)) لابن الجوزي (3/150)، ((النهاية)) لابن الأثير (4/308).
(90) رواه البخاريُّ (3673) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (2541).

# تَفْسِيرُ
# سُورَةِ الحُجُرَاتِ

# سُورةُ الحُجُراتِ

## سُورةُ الحُجُراتِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحُجُراتِ).(91)

سُورةُ الحُجُراتِ مَدَنيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ.(92)

### مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ الكريمةِ:

إرشادُ المُؤمنينَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ مع اللهِ تعالى، ومع الرَّسولِ - ﷺ -، ومع المؤمنينَ.

---

(91) سُمِّيت سورةَ (الحُجُراتِ)؛ لأنَّه ذُكِرَ فيها لَفظُ (الحُجُراتِ)، في قَولِ الله تعالى: يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ [الحجرات: 4].
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (435/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (213/26).
قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت في جميعِ المصاحِفِ وكُتُبِ السُّنَّةِ والتَّفسيرِ سُورةَ الحُجُراتِ، وليس لها اسمٌ غَيرُه).
((تفسير ابن عاشور)) (213/26).

(92) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (127/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (141/4)، ((تفسير القرطبي)) (300/16)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (5/3).
نقل ابنُ عطية (٨/ ٥) الإجماعَ على مدنية سورة الحجرات، فقال: «هي مدنية بإجماع من أهل التأويل».
وقد نُصَّ على مدنية السورة أيضًا في تفسير ابن كثير (١٣/ ١٣٦).

## مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:

1- تعليمُ المُؤمِنينَ ما يجِبُ عليهم نحوَ خالِقِهم، ونحوَ نَبِيِّهم - ﷺ -؛ مِن أدَبٍ.

2- أمْرُ المُؤمِنينَ بالتَّثبُّتِ مِن صِحَّةِ الأخبارِ الَّتي تَصِلُ إلى مَسامِعِهم.

3- بيانُ جانبٍ مِن مَظاهِرِ فَضلِ اللهِ على المؤمنينَ.

4- بيانُ ما يجِبُ على المؤمنينَ نحوَ إخوانِهم عندَ حُدوثِ قِتالٍ بيْنَهم؛ مِنَ الإصلاحِ بيْنَهم، ومُقاتَلةِ الفِئةِ الباغيةِ إذا ما أصرَّتْ على بَغْيِها وأَبَت الصُّلحَ، إلى أن تفيءَ إلى أمرِ اللهِ تعالى.

5- نَهيُ المُؤمِنينَ عن السُّخْريَةِ، والأمرُ باجتِنابِ الظَّنِّ السَّيِّئِ بالغَيرِ، والنَّهيُ عن التَّجسُّسِ والغِيبةِ.

6- تَوجيهُ نِداءٍ إلى النَّاسِ يُبيِّنُ لهم فيه أنَّهم جميعًا قد خُلِقوا مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، وأنَّ أكرَمَهم عندَ اللهِ هو أتقاهم له.

7- الرَّدُّ على الأعرابِ الَّذين قالوا: آمَنَّا، دونَ أن يَستَقِرَّ الإيمانُ في قُلوبِهم، وتوضيحُ صِفاتِ المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

8- ذمُّ المَنِّ على اللهِ ورَسولِه - ﷺ - بالإيمانِ، وأنَّ المِنَّةَ لله تعالى والفَضلَ في الهدايةِ للإيمانِ.

9- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بإحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بغَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ، وكَونِه بَصيرًا بالأعمالِ.

# سُورةُ الحُجُراتِ

## الآيات (1–5)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3) إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ
خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

## غريب الكلمات:

تَحْبَطَ: أي: تَبطُلَ؛ فالحَبْطُ: البُطلانُ، وأصلُه مِن الحَبَطِ، وهو: أنْ تُكثِرَ الدَّابَّةُ أَكْلًا حتَّى يَنتفِخَ بطْنُها فتَمُوتَ.

يَغُضُّونَ: أي: يَخفِضُون ويَكُفُّون، والغضُّ: الكَفُّ في لِينٍ، ومنه: غضُّ البصَرِ، وهو كَفُّه عن النَّظرِ، وأصلُ (غضض): يدُلُّ على كَفٍّ ونقْصٍ.

امْتَحَنَ: أي: اختَبَرَ أو أخْلَصَ، والمَحْنُ: الاختبارُ.

## تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ رضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه قَدِمَ رَكْبٌ[93] مِن بني تَميمٍ على النَّبيِّ - ﷺ -، فقال أبو بكرٍ: أَمِّرِ القَعْقاعَ بنَ مَعبَدِ بنِ زُرارةَ، قال عُمَرُ: بلْ أَمِّرِ الأقرعَ بنَ حابِسٍ، قال أبو بكرٍ: ما أرَدْتَ إلَّا خِلافي! قال عمَرُ: ما أردْتُ خِلافَك، فتَمارَيَا[94] حتَّى ارتفَعَت أصواتُهما، فنزَلَ في ذلك: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا حتَّى انقضَت).[95]

---

(93) الرَّكْبُ: أصحابُ الإبِلِ في السَّفَرِ، وهم العَشَرةُ فما فوقَها.

يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 127).

(94) فتَمارَيَا: أي: تجادَلَا وتخاصَمَا.

يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (184/19).

قال ابنُ عطية (٨/ ٥٢٠): «روي أن سببها كلام أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - المتقدم في أمر الأقرع والقعقاع، والصحيح أنها نَزَلَتْ بسبب عادة الأعراب مِن الجفاء، وعلو الصوت، والعُنجهيَّة».

ولم يذكر مستندًا.

(95) رواه البخاري (4367).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَعجَلوا بقَولٍ أو فِعلٍ قبْلَ أنْ يَأمُرَ به اللهُ ورسولُه، فكونوا تَبَعًا لِما يَأْمُرانِ به.

كما قال تعالى: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [النساء: 65].

وقال سُبحانه: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [النور: 51].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((مَن رغِبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي)).[96]

وَاتَّقُوا اللَّهَ.

أي: واتَّخِذوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً وحاجزًا بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهِيهِ، واحْذَروا أنْ تَقولوا أو تَفعَلوا شيئًا لم يَأذَنْ لكم به اللهُ ولا رسولُه.

كما قال تعالى: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [الإسراء: 36].

---

(96) رواه البخاري (5063)، ومسلم (1401).

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ سَميعٌ لِكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أقوالُ عِبادِه، عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أعمالُ عِبادِه وقُلوبُهم ونيَّاتُهم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أُمورِهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ أبي مُلَيكةَ، قال: (كادَ الخَيِّرانِ أنْ يَهلِكَا: أبو بكرٍ وعمَرُ رضِيَ اللهُ عنهما! رفَعَا أصواتَهما عندَ النَّبيِّ - ﷺ - حينَ قَدِمَ عليه رَكْبُ بني تَميمٍ، فأشار أحَدُهما بالأقرَعِ بنِ حابسٍ أخي بَني مُجاشِعٍ، وأشار الآخَرُ برَجُلٍ آخَرَ، فقال أبو بكرٍ لعُمَرَ: ما أردْتَ إلَّا خِلافي، قال: ما أردْتُ خِلافَك، فارتفَعَتْ أصواتُهما في ذلك، فأنزَلَ اللهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ).[97]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا ترْفَعوا أصواتَكم فوقَ صَوتِ نبيِّ اللهِ محمَّدٍ؛ فاخْفِضوا أصواتَكم، وخاطِبوه بأدَبٍ ولِينٍ وتَعظيمٍ واحترامٍ.

---

(97) رواه البخاري (4845).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – افتقَدَ ثابتَ ابنَ قَيسٍ، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنا أعلَمُ لكَ عِلْمَه، فأتاهُ فوجَدَه جالسًا في بَيتِه مُنكِّسًا رأْسَه،[98] فقال: ما شأْنُك؟ فقال: شرٌّ، كان يَرفَعُ صَوتَه فوقَ صَوتِ النَّبيِّ – ﷺ –، فقد حبِطَ عمَلُه، وهو مِن أهلِ النَّارِ، فأتى الرَّجُلُ فأخبرَه أنَّه قال كذا وكذا، فقال مُوسى بنُ أنسٍ: فرجَعَ المرَّةَ الآخِرةَ بِبشارةٍ عَظيمةٍ، فقال: اذهَبْ إليه فقُلْ له: إنَّك لسْتَ مِن أهْلِ النَّارِ، ولكنْ مِن أهْلِ الجنَّةِ)).[99]

وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ.

أي: ولا تُنادوا النَّبيَّ باسْمِه حينَ تُخاطِبونه كما يُنادي بعضُكم بعضًا، ولكنْ قُولوا: يا نبيَّ اللهِ، أو: يا رسولَ اللهِ، بصَوتٍ مُنخفِضٍ، مع تَعظيمٍ وإجلالٍ يَليقُ به.

كما قال الله تعالى: لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا [النور: 63].

أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ.

أي: لا تَفعَلوا ذلك؛ لئلَّا تَبطُلَ أعمالُكم الصَّالِحةُ وأنتم لا تَعلَمون بذلك.[100]

---

(98) نكَّسَ رأسَه: أي: طأطَأَ وأطرَقَ ونظَرَ إلى الأرضِ كالمُتفكِّرِ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (6/166).

(99) رواه البخاري (3613) واللفظ له، ومسلم (119).

(100) قال ابنُ عطية (٨/ ٨): «قوله تعالى: ﴿أن تحبط﴾ مفعول من أجله، أي: مخافة أن تحبط.
والحبط: إفساد العمل بعد تقرره، يقال: حبِط –بكسر الباء–، وأحبطه الله، وهذا الحبط إن كانت الآية معرِّضة بمن يفعل ذلك استخفافًا واستحقارًا وجرأةً فذلك كفر، والحبط معه على حقيقته.

كما قال تعالى: قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ [التوبة: 65، 66].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إنَّ العبْدَ لَيتكلَّمُ بالكَلمةِ ما يَتبيَّنُ ما فيها، يَهْوي بها في النَّارِ أبْعَدَ ما بيْنَ المَشرِقِ والمغرِبِ!)).(101)

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3).

---

وإن كان التعريض للمؤمن الفاضـل الذي يفعل ذلك غفلةً وجريًا على طبْعه، فإنما يحبط عمله البرَّ في توقير النبي – ﷺ – وغضّ الصوت عنده إن لو فعل ذلك، فكأنه قال: أن تحبط الأعمال التي هي معدَّة أن تعملوها فتؤجروا عليها.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن تأثموا ويكون ذلك سـببًا إلى الوحشـة في نفوسـكم، فلا تزال معتقداتكم تتجرد القهقرى حتى يؤول ذلك إلى الكفر فيُحبط الأعمالَ حقيقة.

وظاهر الآية أنها مخاطبة لفضـــلاء المؤمنين الذين لا يفعلون ذلك احتقارًا، وذلك أنه لا يقال لمنافق يعمل ذلك جرأة: وأنت لا تشعر.

لأنه ليس له عمل يعتقده هو عملًا».

(101) رواه البخاري (6477)، ومسلم (2988) واللَّفظُ له.

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى.

أي: إنَّ الَّذين يَخفِضون أصواتَهم عندَ رسولِ الله؛ أدَبًا معه وتعظيمًا له: هم الَّذين اختبَرَ اللهُ قُلوبَهم بالأوامرِ والنَّواهي والبَلاءِ، فأخلَصَها وطهَّرها مِن كلِّ شرٍّ؛ لِيَكونوا أتْقياءَ يَمتثِلونَ الأوامرَ، ويَجتنِبونَ النَّواهيَ؛ حذَرًا مِن سَخَطِ اللهِ وعَذابِه.

كما قال الله تعالى: ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ [الحج: 32].

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ، ومَرْوانَ بنِ الحَكَمِ في حديثِ صُلْحِ الحُدَيبِيَةِ: ((... قال عُروةُ بنُ مَسعودٍ الثَّقفيُّ لِقُريشٍ حِينَ رجَعَ مِن عندِ رسولِ الله: أيْ قَومِ، واللهِ لقد وفَدْتُ على الملوكِ، ووفَدْتُ على قَيصرَ، وكِسرى، والنَّجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَلِكًا قَطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ - ﷺ - محمَّدًا، واللهِ إنْ تنخَّمَ نُخامةً إلَّا وقَعَت في كفِّ رجُلٍ منهم، فدلَكَ بها وجْهَه وجِلْدَه، وإذا أمَرَهم ابتَدَروا[102] أمْرَه، وإذا تَوضَّأَ كادُوا يَقتَتِلون على وَضوئِه،[103] وإذا تكلَّمَ خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون[104] إليه النَّظرَ؛ تعظيمًا له)).[105]

---

(102) ابتَدَروا أمْرَه: أي: أسرَعوا إلى فِعْلِه.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (4/447).
(103) وَضُوئِه، بفتحِ الواوِ: أي: فَضلةِ الماءِ الَّذي توضَّأَ به - ﷺ -.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (4/447).
(104) ما يُحِدُّونَ إليه النَّظَرَ: أي: لا يَتأمَّلونَه ولا يُديمونَ النَّظَرَ إليه.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (4/447).
(105) رواه البخاري (2731).

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتنُ على القُلوبِ كالحصيرِ عُودًا عُودًا،[106] فأيُّ قلْبٍ أُشرِبَها، نُكِت[107] فيه نُكْتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلْبٍ أنكَرَها، نُكِت فيه نُكْتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على قَلبَينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفا،[108] فلا تضُرُّه فِتْنةٌ ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودُ مُرْبَادًّا،[109] كالكُوزِ مُجَخِّيًا،[110] لا يَعرِفُ معروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ)).[111]

(106) أي: تَظهَرُ بها فِتنةٌ بعدَ أخرى، كما يُنسَجُ الحَصيرُ عُودًا عُودًا.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (3378/8).
(107) نُكِتَ: أي: نُقِطَ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (172/2).
(108) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الَّذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (172/2).
(109) مُرْبادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ، مِنَ الرُّبْدةِ: لَونٌ بيْنَ السَّوادِ والغُبْرةِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3378/8).
(110) مُجَخِّيًا: أي: مائِلًا مَنكوسًا.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (173/2).
(111) رواه مسلم (144).

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: (كان عمَرُ بعْدُ أي: بعدَ نزولِ قولِه تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ... إذا حدَّث النَّبيَّ - ﷺ - بحديثٍ حدَّثه كأخي السِّرارِ،[112] لم يُسْمِعْه حتَّى يَستفهِمَه).[113]

وعن عمْرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنه، قال: (ما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ مِن رسولِ اللهِ - ﷺ -، ولا أجَلَّ في عَينيَّ منه، وما كنتُ أُطِيقُ أنْ أملأَ عَينيَّ منه؛ إجلالًا له، ولو سُئِلتُ أنْ أصِفَه ما أطقْتُ؛ لأنِّي لم أكُنْ أملأُ عَيْنيَّ منه!).[114]

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ.

أي: لهم مِن اللهِ مَغفرةٌ لذُنوبِهم فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم ثوابٌ منه جَزيلٌ.

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4).

أي: إنَّ الَّذين يُنادونَك مِن وَراءِ بُيوتِ نِسائِك -يا محمَّدُ- أكثَرُهم جاهِلون بدِينِ الله وما يجِبُ عليهم مِن تَعظيمِك، والتَّأدُّبِ معك.

(112) أي: كصاحِبِ السِّرارِ لا يرفَعُ صَوتَه إذا حدَّثَه، بل يكَلِّمُه كلامًا مِثلَ المُسارَّةِ وشِبْهِها؛ لخَفضِ صَوتِه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (316/10).

(113) رواه البخاري (7302).

(114) رواه مسلم (121).

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضيَ اللهُ عنهما في قولِه تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، قال: ((فقام رجُلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ حمْدي زَينٌ، وإنَّ ذمِّي شَينٌ! فقال النَّبيُّ – ﷺ – : ذاك اللهُ)).[115]

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5).

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ.

أي: ولو أنَّهم انتَظَروا خُروجَك مِن بَيتِك –يا محمَّدُ– مِن تِلْقاءِ نفْسِك، ولم يُنادوك مِن وَراءِ حُجُراتِك تَعظيمًا لك؛ لَكان خَيرًا وأصلَحَ لهم في دِينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم.

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: واللهُ بالِغُ المغفرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، بالِغُ الرَّحمةِ بهم.

---

(115) أخرجه الترمذي (3267) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (11515).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ).

وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (42/5)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (3267).

# سُورةُ الحُجُراتِ

## الآيات (6-8)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

## غريب الكلمات:

فَاسِقٌ وَالْفُسُوقَ: الفِسقُ: الخروجُ عن طاعةِ الله، وقد يكونُ بأعظَمِ أنواعِ الخروجِ، وهو الكفرُ، أو بما هو دونَ ذلك مِن المعاصي، وأصلُ الفِسقِ: الخروجُ عن الشَّيءِ، يُقالُ منه: فَسَقتِ الرُّطَبَةُ، إذا خَرَجتْ مِن قِشْرِها.

بِنَبَإٍ: النَّبأُ: خبَرٌ فيه خطَرٌ، أو: خبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ.

لَعَنِتُّمْ: أي: لَوقَعْتُم في ضَررٍ وفسادٍ، ولَنالَكُم مَشقَّةٌ وشِدَّةٌ وإثمٌ، وأصْلُ (عنت): يدُلُّ على مَشقَّةٍ.

## تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6).

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا.**

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنْ جاءكم أيُّ فاسِقٍ كان بأيِّ خبرٍ، فتمهَّلوا وتوقَّفوا عن قَبولِ خَبرِه، حتَّى تَتيقَّنوا منه، فتَتبيَّنوا صِدقَه أو كَذِبَه، وتَظهَرَ لكم الحقيقةُ.(116)

---

(116) قال ابنُ القيم (٣/ ٦ – ٧): «هاهنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر بردّ خبر الفاسق وتكذيبه وردّ شهادته جملة، وإنما أمر بالتبيّن، فإن قامت قرائن وأدلة مِن خارجٍ تدل على صدقه عُمِل بدليل الصدق، ولو أخبر به مَن أخبر، فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته، وكثير من الفاسقين يصدُقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرّى الصدق غاية التحري، وفِسْقه من جهات أُخر، فمثل هذا لا يُردّ خبره ولا شهادته، ولو رُدّت شهادة مثل هذا وروايته لتعطّلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولاسيما مَن فِسْقه مِن جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحرٍّ للصدق، فهذا لا يُردّ خبره ولا شهادته.

وأمّا مَن فِسْقه مِن جهة الكذب فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يُقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين ففي ردّ شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد».

وبنحوه قال ابنُ تيمية (٦/ ٤٦ – ٤٧).

قال ابنُ عطية (٨/ ١١): «الفسق: الخروج عن نهج الحق، وهو مراتب متباينة، كلّها مظنّة للكذب وموضع تثبت وتبين، وتأنس القائلون بقبول خبر الواحد بما يقتضيه دليل خطاب هذه الآية؛ لأنه يقتضي أنّ غير الفاسق إذا جاء بنبإ أن يعمل بحسبه، وهذا ليس باستدلال قوي».

ونقل أنّ منذر بن سعيد قال: هذه الآية تردُّ على مَن قال: إنّ المسلمين كلّهم عدول حتى تثبت الجرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتبيّن قبل القبول.

ثم علَّق (٨/ ١٢) بقوله: «وقوله يقتضي أن المجهول الحال يُخشى أن يكون فاسقًا، والاحتياط لازم».

أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ.

أي: إنْ جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنوا؛ لئلَّا تُصِيبوا -خطأً وجهْلًا منكم- قومًا بُرآءَ ممَّا قُذِفوا به بسَببِ تَصديقِكم الفاسِقَ في خبَرِه الكاذِبِ.

فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ.

أي: فتنْدَموا -أيُّها المؤمنونَ- على إصابتِكم القَومَ البُرآءَ بأذًى وضَررٍ؛ بسَببِ تعجُّلِكم في قَبولِ خبَرِ الفاسِقِ، وترْكِكم التَّبيُّنَ والتَّثبُّتَ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7).

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ.

أي: واعْلَموا -يا أصحابَ النَّبيِّ- أنَّ رسولَ اللهِ بيْنَ أظْهُرِكم.

لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ.

أي: لو أنَّ رسولَ اللهِ يَعمَلُ بآرائِكم -أيُّها المؤمنونَ- في كثيرٍ مِن الأمورِ، لَوقَعْتُم في مَشقَّةٍ وشِدَّةٍ.

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خطَبَنا رسولُ اللهِ - ﷺ - فقال: أيُّها النَّاسُ، قد فرَضَ اللهُ عليكم الحجَّ، فحُجُّوا، فقال رجُلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ فسَكَتَ حتَّى قالَها ثلاثًا، فقال رسولُ اللهِ

- ﷺ -: لو قلْتُ: نعمْ، لَوجبَتْ، ولَما استطَعْتُم، ثمَّ قال: ذَرُوني ما ترَكْتُكم؛ فإنَّما هلَكَ مَن كان قبْلَكم بكَثْرةِ سُؤالِهم، واختِلافِهم على أنْبيائِهم، فإذا أمَرْتُكم بشَيءٍ فأْتُوا منه ما استطَعْتُم، وإذا نَهَيْتُكم عن شَيءٍ فدَعُوه)).[117]

وعن أبي ذَرٍّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صُمْنا مع رسولِ اللهِ - ﷺ - رمضانَ، فلم يَقُمْ بنا النَّبيُّ - ﷺ - حتَّى بقِيَ سبْعٌ مِن الشَّهرِ، فقام بنا حتَّى ذهَبَ نحْوٌ مِن ثُلُثِ اللَّيلِ، ثمَّ كانت سادسةٌ فلم يَقُمْ بنا، فلمَّا كانت الخامسةُ قام بنا حتَّى ذهَبَ نحْوٌ مِن شَطرِ اللَّيلِ، قُلْنا: يا رسولَ الله، لو نفَّلْتَنا[118] قِيامَ هذه اللَّيلةِ، قال: إنَّ الرَّجُلَ إذا صلَّى مع الإمامِ حتَّى يَنصرِفَ حُسِب له قِيامُ لَيلةٍ)).[119]

وعن عائشةَ رضي الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ -، خَرَج مِن جوفِ اللَّيلِ فصلَّى في المسجدِ، فصلَّى رجالٌ بصلاتِه، فأصْبَح النَّاسُ يتحدَّثونَ بذلك، فاجْتَمَع أكثرُ منهم، فخَرَج رسولُ اللهِ - ﷺ - في اللَّيلةِ الثَّانيةِ، فصلَّوْا بصلاتِه، فأصْبَح النَّاسُ يَذْكُرونَ ذلك، فكَثُر أهلُ المسجدِ مِن اللَّيلةِ الثَّالثةِ،

---

(117) رواه مسلم (1337).

(118) نَفَّلْتَنا: أي: زِدْتَنا مِن صَلاةِ النَّافِلةِ.

يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (1234/4).

(119) أخرجه أبو داودَ (1375)، والترمذيُّ (806)، والنسائيُّ (1364) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (1327)، وأحمد (21447).

قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ).

وصَحَّحه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (349/1)، وابنُ حِبَّان في ((الصحيح)) (2547)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (178/25)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (1364).

فخَرَج فصَلَّوْا بصلاتِه، فلمَّا كانت اللَّيلةُ الرَّابعةُ عَجَز المسجدُ عن أهلِه، فلم يَخْرُجْ إليهم رسولُ اللهِ – ﷺ –، فطَفِق رِجالٌ منهم يقولونَ: الصَّلاةَ، فلم يخرُجْ إليهم رسولُ اللهِ – ﷺ – حتَّى خرَج لصلاةِ الفجرِ، فلمَّا قضَى الفجرَ أقْبَل على النَّاسِ، ثُمَّ تَشَهَّد، فقال: أمَّا بعدُ، فإنَّه لم يَخْفَ علَيَّ شأْنُكم اللَّيلةَ، ولكنِّي خَشيتُ أنْ تُفْرَضَ عليكم صلاةُ اللَّيلِ فتَعْجِزوا عنها)).[120]

وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ.

أي: ولكنَّ اللهَ هو الَّذي حبَّب إليكم –يا أصحابَ النَّبيِّ– الإيمانَ، فآثَرْتُموه ورَضِيتُموه، فأنتم تُطِيعون اللهَ ورسولَه، ولا تُقدِّمون بيْنَ يدَيِ اللهِ ورَسولِه وإنْ خالَفَ رأْيَكم، فيَقيكم الله بذلك مِن الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ.

وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ.

أي: وحسَّن اللهُ في قُلوبِكم الإيمانَ؛ فهو وحْدَه مَن وفَّقَكم إليه، وحبَّبه إلى نُفوسِكم.

وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ.

أي: وبغَّض اللهُ إليكم الكفْرَ به وبرَسولِه، والخُروجَ عن طاعتِهما، وارتِكابَ المعاصي.

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((مَن سَرَّتْه حسَنَتُه وساءَتْه سَيِّئتُه، فهو مُؤمِنٌ)).[121]

---

(120) أخرجه البخاري (924)، مسلم (761) واللفظ له.

(121) أخرجه الترمذيُّ (2165)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (9225)، وأحمدُ (114) مطوَّلًا.

أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ.

أي: الَّذين حبَّبَ اللهُ إليهم الإيمانَ، وزيَّنَه في قُلوبِهم، وكَرَّه إليهم الكفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ؛ أولئك هم السَّالِكون طَريقَ الحقِّ، المستَقيمون عليه، الموفَّقونَ للصَّوابِ.

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8).

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً.

أي: فعَلَ اللهُ بهم ذلك تفَضُّلًا منه عليهم، ونِعمةً أنعَمَ بها عليهم؛ حيثُ حبَّبَ إليهم الإيمانَ، وزيَّنَه في قُلوبِهم، وكرَّه إليهم الكفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، فلمْ يَكِلْهم إلى أنفُسِهم، بلْ تولَّى سُبحانَه ذلك مِن غيرِ حَولٍ منهم ولا قوَّةٍ.

كما قال تعالى: وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ [النور: 21].

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

---

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ).

وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (7254)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (92/4)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (2165)، وشعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((العواصم والقواصم)) (47/9)، وقال ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (554/2): (رُوِيت هذه الخُطبةُ عن عُمَرَ مِن وُجوهٍ عديدةٍ إذا تُتُبِّعَت بلَغَت حَدَّ التَّواتُرِ).

أي: واللهُ بالِغُ العِلمِ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلْمُه التَّامُّ بالمحْسِنينَ مِن المسيئينَ، ومَن هم أهلٌ لفضْلِ اللهِ ونِعمتِه ممَّن لا يَصلُحُ لذلك، وهو بالغُ الحِكمةِ؛ فيَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به، ومِن ذلك إيتاؤُه فضْلَه لِمَن يَصلُحُ له.

# سُورةُ الحُجُراتِ

## الآيتان (9–10)

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

## غريب الكلمات:

**بَغَتْ**: أي: تعَدَّتْ، أو لم تَرْضَ بحُكْمِ رسولِ الله؛ فالبَغْيُ: التَّطاوُلُ والفسادُ، وأصلُ (بغي) هنا: جِنْسٌ مِن الفسادِ.

**تَفِيءَ**: أي: تَرجِعَ، والفَيءُ والفَيئةُ: الرُّجوعُ إلى حالةٍ محمودةٍ، وأصْلُ (فيأ): يدُلُّ على رُجوعٍ.

**وَأَقْسِطُوا**: أي: اعْدِلوا، والْمُقْسِطِينَ: العادِلينَ، وأصْلُ القِسطِ يدُلُّ على مَعنيَينِ مُتضادَّينِ: العدْلُ، والجَوْرُ؛ يُقال: أقسَطَ: إذا عدَلَ. وقَسَطَ: إذا جارَ.

## تفسير الآيتين:

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9).

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا.

أي: وإنْ طائفتانِ مِن أهلِ الإيمانِ تَقاتَلوا فيما بيْنَهم، فاسْعَوا -أيُّها المؤمنونَ- إلى الإصلاحِ بيْنَهما.

كما قال تعالى: لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 114].

وقال عزَّ وجلَّ: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا [النساء: 59].

وقال سُبحانَه: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا [النساء: 65].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قِيل للنَّبِيِّ - ﷺ -: لو أتيتَ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ، فانطلَقَ إليه النَّبيُّ - ﷺ -، وركِبَ حِمارًا، فانطلَقَ المسلِمون يَمْشُون معه، وهي أرضٌ سَبِخةٌ،(122) فلمَّا أتاهُ النَّبيُّ - ﷺ - فقال: إليكَ عنِّي، واللهِ لقد آذاني نَتْنُ حِمارِك، فقال رجُلٌ مِن الأنصارِ منهم: واللهِ لَحِمارُ رسولِ اللهِ - ﷺ - أطيَبُ رِيحًا منك، فغضِبَ لعبدِ اللهِ رجُلٌ مِن قَومِه، فشَتَمَه، فغضِبَ لِكُلِّ واحدٍ منهما أصحابُه، فكان بيْنَهما ضرْبٌ بالجريدِ والأيدي والنِّعالِ، فبَلَغنا أنَّها أُنزِلَت: وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا)).(123)

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيْتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - على المِنْبَرِ والحسَنُ بنُ عليٍّ إلى جنبِه، وهو يُقبِلُ على النَّاسِ مرَّةً، وعليه أُخرى، ويقولُ: إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، ولَعلَّ اللهَ أنْ يُصلِحَ به بيْنَ فِئتَينِ عَظيمتَينِ مِن المسلِمينَ)).(124)

---

(122) سَبِخةٌ: أي: ذاتُ سِباخٍ، وهي الأرضُ الَّتي تَعْلوها المُلوحةُ، ولا تكادُ تُنبِتُ إلَّا بعضَ الشَّجَرِ.
يُنظر: ((عمدة القاري)) للعَيني (267/13).

(123) رواه البخاري (2691) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (1799).
قال ابنُ عاشور: (يُناكِدُ هذا [أي: كَوْنَ الآيةِ نزلَت في هذه الحادثةِ] أنَّ تلك الوَقعةَ كانت في أوَّلِ أيَّامِ قُدومِ رَسولِ اللهِ - ﷺ - المدينةَ.
وهذه السُّورةُ نزَلت سنةَ تِسعٍ مِنَ الهِجرةِ، وأنَّ أنَسَ بنَ مالكٍ لم يَجزِمْ بنُزولِها في ذلك؛ لِقَولِه: فبَلَغنا أنْ نزَلت فيهم: وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، اللَّهُمَّ [إلَّا] أن تكونَ هذه الآيةُ أُلحِقَت بهذه السُّورةِ بعدَ نزولِ الآيةِ بمدَّةٍ طويلةٍ).
((تفسير ابن عاشور)) (238/26).
ويُنظر: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) لخالد المزيني (924/2).

(124) رواه البخاري (2704).

فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ.

أي: فإنْ أبَتْ إحْدى الطَّائفتَينِ المقْتتِلتَينِ الإجابةَ إلى الصُّلحِ وأجابَت الأُخرى، فقاتِلوا –أيُّها المؤمنونَ– الطَّائفةَ المعْتدِيةَ المُقاتِلةَ حتَّى ترجِعَ إلى شرْعِ اللهِ، وتَسمَعَ للحقِّ وتُطيعَه.

عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظلومًا، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنْصُرُه إذا كان مَظلومًا، أفرَأَيتَ إذا كان ظالِمًا؛ كيف أنصُرُه؟! قال: تَحجُزُه –أو: تَمنَعُه– مِن الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلك نَصْرُه)).[125]

فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ.

أي: فإنْ رجَعَت الطَّائفةُ الباغيةُ إلى الرِّضا بحُكْمِ اللهِ، فأصْلِحوا –أيُّها المؤمنونَ– بيْنَها وبيْنَ الطَّائفةِ الأُخرى بالعدْلِ.

وَأَقْسِطُوا.

أي: واحْكُموا –أيُّها المؤمنونَ– بيْنَ الطَّائفتَينِ المُتقاتِلتَينِ بالحقِّ والإنصافِ بلا جَورٍ.

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الحاكِمينَ بالحقِّ والإنصافِ.

(125) رواه البخاري (6952).

كما قال الله تعالى: وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [المائدة: 42].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمْرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إنَّ المُقسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابرَ مِن نُورٍ، عن يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يَدَيْه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلون في حُكْمِهم وأهْلِيهم وما وَلُوا))[126]. [127]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10).

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.

أي: إنَّما المؤمنون إخوةٌ في الدِّينِ، يَجِبُ عليهم التَّوادُدُ والتَّناصُرُ فيما بيْنَهم.

كما قال تعالى: وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا [آل عمران: 103].

وقال سُبحانه: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ [التوبة: 11].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ [الحشر: 10].

---

(126) وَلُوا –بفَتحِ الواوِ وضَمِّ اللَّامِ المُخَفَّفةِ– أي: مَن كانت لهم عليه وِلايةٌ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (211/12).
(127) رواه مسلم (1827).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((لا تَباغَضوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَدابَروا، وكُونوا –عِبادَ اللهِ– إخوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ لَيالٍ)).(128)

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((المُسلِمُ أخو المسلمِ، لا يَظلِمُه، ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فرَّجَ عن مُسلمٍ كُرْبةً فرَّجَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن سترَ مُسلِمًا ستَرَه اللهُ يومَ القيامةِ)).(129)

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ((مَثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم، وتَراحُمِهم، وتَعاطُفِهم؛ مَثَلُ الجسَدِ إذا اشْتَكى منه عُضْوٌ تَداعى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)).(130)

وعن أبي مُوسى رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّ المؤمنَ للمؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشبَّكَ أصابعَه)).(131)

وعن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِه)).(132)

---

(128) رواه البخاريُّ (6076) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (2558).
(129) رواه البخاري (2442) واللَّفظُ له، ومسلم (2580).
(130) رواه البخاري (6011)، ومسلم (2586) واللَّفظُ له.
(131) رواه البخاري (481) واللفظ له، ومسلم (2585).
(132) رواه البخاري (13) واللفظ له، ومسلم (45).

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((مَنْ نفَّسَ عن مُؤمنٍ كُرْبةً مِن كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن يسَّر على مُعسِرٍ يسَّر اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ، ومَن ستَرَ مُسلمًا ستَرَه اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عَونِ العبْدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيهِ)).(133)

وعن أمِّ الدَّرْداءِ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ -كان يقولُ: ((دَعوةُ المرْءِ المسلمِ لأخيه بظَهْرِ الغيبِ مُستجابةٌ، عندَ رأْسِه مَلَكٌ مُوكَّلٌ كلَّما دعا لأخيهِ بخَيرٍ، قال المَلَكُ الموكَّلُ به: آمِينَ، ولك بمِثْلٍ)).(134)

فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ.

أي: فأصْلِحوا بيْنَ كِلْتا الطَّائفتَينِ المؤمِنتَينِ إذا اقتتَلَتا، بحَمْلِهما على حكْمِ اللهِ ورسولِه.

عن سَهلِ بنِ سعدٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ أهلَ قُباءٍ اقتتَلوا حتَّى تَرامَوا بالحجارةِ، فأُخبِرَ رسولُ اللهِ - ﷺ - بذلك، فقال: اذْهَبوا بنا نُصلِحْ بيْنَهم)).(135)

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

أي: واجْعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً وحاجزًا -أيُّها المؤمنونَ- بامتِثالِ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، واجتِنابِ ما نَهى عنه؛ لعلَّكم تنالُون رحمةَ اللهِ تعالى.

---

(133) رواه مسلم (2699).

(134) رواه مسلم (2733).

(135) رواه البخاري (2693) واللفظ له، ومسلم (421).

كما قال الله تعالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [الطلاق: 2، 3].

وقال سُبحانه: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا [الطلاق: 4].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا [الطلاق: 5].

# سُورةُ الحُجُراتِ

## الآيات (11–13)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

## غريب الكلمات:

تَلْمِزُوا: أي: تَعِيبوا، واللَّمْزُ: العيبُ.

وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ: أي: لا تَتَداعَوْا بالألقابِ الَّتي يَسوءُ الشَّخصَ سَماعُها، تقولُ: نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزًا، أي: لَقَّبَه، والألقابُ جمعُ لَقَبٍ: وهو اسمٌ يُسمَّى به الإنسانُ سِوى اسمِه الأوَّلِ، ويُراعَى فيه المعنى.

وَلَا تَجَسَّسُوا: أي: لا تَتَبَّعُوا عَوْراتِ المسلِمينَ، أو: لا تَبْحثوا عن الأخبارِ، والتَّجسُّسُ: البحثُ، أو: التَّفْتيشُ عن بواطنِ الأُمورِ، وأكثرُ ما يُقالُ ذلك في الشَّرِّ، والجسُّ أصلُه: مَسُّ العِرقِ، وتَعَرُّفُ نَبْضِه للحُكمِ به على الصِّحةِ والسَّقَمِ، وأصلُ (جسس): تَعرُّفُ الشَّيءِ بمَسٍّ لطيفٍ.

وَلَا يَغْتَبْ: الغِيبةُ: أنْ يُذكَرَ الإنسانُ في غَيْبَتِه بسُوءٍ وإنْ كانَ فيه، وأصْلُ (غيب): يدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عن العُيونِ، والغِيبةُ مِن هذا؛ لأنَّها لا تُقالُ إلَّا في غَيْبَةٍ.

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ: الشُّعُوبُ: جَمعُ شَعْبٍ، وهو الحَيُّ العَظيمُ، أو: رُؤوسُ القبائِلِ؛ سُمِّيت بذلك لأنَّ القبائِلَ تتشعَّبُ منها، أو سُمِّيَ الشَّعبُ بذلك؛ للاجتِماعِ والائتِلافِ. ولـ (شعب) أصْلانِ مختَلِفانِ: أحَدُهما يدُلُّ على الافتِراقِ، والآخَرُ على الاجتِماعِ.

والقبائِلُ: جَمعُ قَبيلةٍ، وهي دونَ الشَّعبِ، والقَبيلةُ: بنو أبٍ واحدٍ، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ شَيءٍ لشَيءٍ؛ وسُمِّيت القبائلُ بذلك لإقبالِ كُلِّ واحِدةٍ منها على الأُخرى.

## تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11).

**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ.**

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا يَستهزِئْ قَومٌ مؤمِنونَ مِن قَومٍ آخَرينَ مُؤمنينَ، ويَستخِفُّوا بهم؛ عَسى أنْ يكونَ المُستهزَأُ بهم خَيرًا مِن الهازِئينَ، وأعظَمَ قدْرًا منهم.[136]

قال تعالى: زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [البقرة: 212].

(136) قال ابنُ عطية (٨/ ١٥ بتصرف): «هذه الآيات والتي بعدها نَزَلَتْ في خُلق أهل الجاهلية، وذلك لأنهم كانوا يَجرون مع شهوات نفوسهم، لم يُقَوِّمهم أمْرٌ مِن الله ولا نَهيٌ، فكان الرجل يسخر، ويهمز، ويلمز، وينبز بالألقاب، ويظنّ الظّنون فيتكلّم بها، ويغتاب، ويفتخر بنَسَبه، إلى غير ذلك مِن أخلاق النفوس البطّالة، فنَزَلتْ هذه الآية تأديبًا لأمة محمد – ﷺ –.
وذكر بعض الناس لهذه الآيات أسبابًا...، والقويُّ عندي أنّ هذه الآية نَزَلتْ تقويمًا كسائر أمر الشرع، ولو تتبّعت الأسباب لكانت أكثر من أنْ تُحصى».

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((المسلِمُ أخو المسلِمِ، لا يَظلِمُه، ولا يَخذُلُه، ولا يَحقِرُه)).[137]

وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ.

أي: ولا يَستهزِئْ نِساءٌ مُؤمناتٌ مِن نِساءٍ أُخْرياتٍ مُؤمناتٍ، ويَسْتخفِفْنَ بهنَّ؛ عَسى أنْ يكونَ المسْتهزَأُ بهنَّ خيرًا مِن المُسْتهزِئاتِ، وأعظَمَ قدْرًا منهنَّ.

وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ.

أي: ولا يَطعُنْ بعضُكم على بعضٍ، فيَعِيبَه ويَقدَحَ فيه.[138]

---

(137) رواه مسلم (2564).

(138) اختُلِف في السُّخرية المنهيّ عنها في هذه الآية على قولين: الأول: أنها استهزاء الغني بالفقير لفقره.

والثاني: أنها استهزاء المسلم بمن أعلن فسقه.

وذهب ابنُ جرير (٢١/ ٣٦٦) إلى أنّ المراد جميع معاني السخرية استنادًا إلى دلالة العموم، فقال: «الصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله عمَّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميعَ معاني السخرية، فلا يحلّ لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره، ولا لذنب ركِبَه، ولا لغير ذلك».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٨/ ١٥).

قال ابنُ عطية (٨/ ١٦ بتصرف): «وقد يكون اللمْز بالقول وبالإشارة ونحوه مما يفهمه آخر، والهمْز لا يكون إلا باللسان.

وحكى الثعلبي أنّ اللمْز ما كان في المشهد، والهمْز ما كان في المغيب.

وحكى الزهراويُّ عن علي بن سليمان عكس ذلك، فقال: الهمْز أن تعيب بالحضرة، واللمْز في الغيبة».

اختُلِف في الألقاب التي نهى الله عن التنابز بها في هذه الآية على ثلاثة أقوال: الأول: أنّ المراد: الألقاب التي يكره صاحبها أن يُدْعى بها.

والثاني: أنّ المراد: تسمية الرجل بالأعمال السيئة بعد إسلامه وتوبته منها، كـ: يا فاسق، ويا سارق، ويا زانٍ.

والثالث: أنّ المراد: تسمية الرجل باسم دينه الذي كان عليه قبل الإسلام، كـ: يا يهوديّ، ويا نصرانيّ.

كما قال الله تبارك وتعالى: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [التوبة: 79].

وقال سُبحانه: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ [الهمزة: 1].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((مَن قال في مُؤمنٍ ما ليس فيه أسكَنَه اللهُ رَدْغةَ الخَبالِ[139] حتَّى يَخرُجَ ممَّا قال)).[140]

**وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ.**

أي: ولا يُنادِ بعضُكم بعضًا –أيُّها المؤمنونَ– بالأسماءِ والصِّفاتِ القَبيحةِ الَّتي يَكرَهُها المنادَى بها.

---

وذهب ابنُ جرير (٢١/ ٣٧١) إلى صحة كل تلك الأقوال استنادًا إلى دلالة العموم، فقال: «والذي هو أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب أن يقال: إنّ الله –تعالى ذكره– نهى المؤمنين أن يتنابزوا بالألقاب، والتنابز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعمَّ الله بنهيه ذلك، ولم يخصّص به بعض الألقاب دون بعض، فغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسمٍ يكرهه أو صفة يكرهها، وإذا كان ذلك كذلك صحّت الأقوال التي قالها أهلُ التأويل في ذلك التي ذكرناها كلّها، ولم يكن بعض ذلك أولى بالصواب من بعض؛ لأنّ كلّ ذلك مما نهى الله المسلمين أن ينبز بعضهم بعضًا به».

وقال ابنُ عطية (٨/ ١٧): «وليس من هذا قول المحدِّثين: سليمان الأعمش، وواصل الأحدب، ونحوه مما تدعو الضرورة إليه، وليس فيه قصْد استخفاف ولا أذًى».

(139) رَدْغةُ الخَبالِ: أي: عُصارةُ أهلِ النَّارِ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (215/2).

(140) أخرجه أبو داود (3597)، وأحمد (5385) مطوَّلًا.

صحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (204/7)، وشعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (283/9)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (3597).

## سَببُ النُّزولِ:

عن أبي جَبِيرةَ بنِ الضَّحَّاكِ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((فِينا نزَلَت هذه الآيةُ في بني سَلِمةَ: وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ؛ قال: قدِمَ علينا رسولُ اللهِ - ﷺ - وليس مِنَّا رجُلٌ إلَّا وله اسمانِ أو ثلاثةٌ، فجعَلَ النَّبيُّ - ﷺ - يقولُ: يا فُلانُ، فيقولونَ: مَهْ يا رسولَ اللهِ؛ إنَّه يَغضَبُ مِن هذا الاسمِ! فأُنزِلَت هذه الآيةُ: وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)).[141]

بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ.

أي: بِئسَ الاسمُ الَّذي تَنالونَه اسمُ الفسوقِ بعْدَ اتِّصافِكم بالإيمانِ.[142]

---

(141) أخرجه أبو داود (4962) واللفظ له، والترمذي (3268)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11516)، وابن ماجه (3741)، وأحمد (18288).

قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (5709)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (3724) وقال: (على شرطِ مُسلمٍ)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (4962)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4962): (إسنادُه صحيحٌ إنْ صحَّت صُحبةُ أبي جَبِيرةَ بنِ الضَّحَّاكِ، وإلَّا فمُرسَلٌ).

(142) قال ابنُ عطية (٨/ ١٨): «قوله تعالى: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: بئس اسم تكتسبونه بعصيانكم ونبزكم بالألقاب فتكونون فُسّاقًا بالمعصية بعد إيمانكم.

والثاني: بئس ما يقول الرجل لأخيه: يا فاسق بعد إيمانه».

وذهب ابنُ جرير (٢١/ ٣٧٢)، وابنُ تيمية (٦/ ٧٥) إلى المعنى الأول الذي ذكره ابن عطية استنادًا إلى السياق.

وانتَقَدَ ابنُ تيمية (٣/ ٩) المعنى الثاني لدلالة القرآن، والسنة، فقال: «قيل: معناه: لا تسمّيه فاسقًا ولا كافرًا بعد إيمانه.

وهذا ضعيف، بل المراد: بئس الاسم أن تكونوا فُسّاقًا بعد إيمانكم، كما قال تعالى في الذي كذب: ﴿إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا﴾ فسمّاه فاسقًا، وفي الصحيحين عن النبي - ﷺ - أنه قال: «سِباب المسلم فسوق، وقِتاله كُفر».

يقول: فإذا سابَبتم المسلم وسخرتم منه ولمزتموه استحققتم أن تُسمّوا فُسّاقًا وقد قال في آية القذف: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون﴾ [النور: ٤].

وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

أي: ومَن لم يَتُبْ مِن السُّخريةِ بإخوانِه المؤمنينَ، أو لَمْزِهم، أو مُنابزِتهم بالألقابِ؛ فإنَّهم هم الظَّالِمونَ لأنفُسِهم بتَعريضِها لِعِقابِ اللهِ، والظَّالِمونَ لغيرِهم بالاعتداءِ عليهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَقرَبوا كثيرًا مِن الظَّنِّ، فتتَّهِموا النَّاسَ بالسُّوءِ ظَنًّا منكم بلا بُرهانٍ.(143)

---

يقول: فإذا أتيتم بهذه الأمور التي تستحقون بها أن تُسمّوا فُسّاقًا كنتم قد استحققتم اسم الفسوق بعد الإيمان، وإلا فهم في تنابزهم ما كانوا يقولون: فاسق، كافر، فإن النبي – ﷺ – قدم المدينة وبعضهم يُلَقِّب بعضًا».

(143) قال ابنُ عطية (٨/ ١٨ – ١٩ بتصرف): «أمر –تبارك وتعالى– المؤمنين باجتناب كثير من الظن، وأن لا يعملوا ولا يتكلّموا بحسبه، لما في ذلك وفي التجسس مِن التقاطع والتدابر، وحكم على بعضه بأنّه إثم؛ إذ بعضه ليس بإثمٍ، ولا يلزم اجتنابه، وهو ظنّ الخير بالناس، وحسنه بالله تعالى، والمظنون من شهادات الشهود، والمظنون به من أهل الشرّ؛ فإنّ سقوط عدالته وغير ذلك هي من حُكم الظنّ به، وظنّ الخير بالمؤمن محمود.

والظنّ المنهي عنه: هو أن يظن سوءًا برجل ظاهره الصلاح، بل الواجب أن يزيل الظنّ وحكمه ويتأوّل الخير.

وقال بعض الناس: ﴿إثم﴾ معناه: كذب، ومنه قول النبي – ﷺ –: «إياكم والظنّ؛ فإنّ الظنّ أكذب الحديث».

وقال بعض الناس:» معنى قوله تعالى: ﴿إن بعض الظن إثم﴾ أي: إذا تكلم الظانّ أثِم، وما لم يتكلم فهو في فسحة؛ لأنه لا يقدر على دفع الخواطر التي يبيحها قول النبي – ﷺ –: «الحزم سوء الظن»، وما زال أولو العزم يحترسون من سوء الظن ويسدُّون ذرائعه".

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبِيِّ – ﷺ – قال: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ، ولا تَحَسَّسوا، ولا تَجَسَّسوا،[144] ولا تَنافَسوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَباغَضوا، ولا تَدابَروا، وكُونوا –عِبادَ اللهِ– إخوانًا)).[145]

إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ.

أي: إنَّ ظنَّ المؤمنِ بغَيرِه السُّوءَ مِن غيرِ دليلٍ ذنْبٌ.

---

قال ابنُ عطية (٨/ ١٩): «قال بعض الناس:» التجسُّس –بالجيم– في الشرّ، والتحسُّس –بالحاء– في الخير، وهكذا ورد القرآن، ولكن قد يتداخلان في الاستعمال.

وقال أبو عمرو بن العلاء: التجسُّس: ما كان من وراء وراء.

والتحسُّس –بالحاء–: الدخول والاستعلام".

وبنحوه قال ابنُ كثير (١٣/ ١٥٨).

(144) قال النَّوَوي: (قال بعضُ العلماءِ: التَّحسُّسُ بالحاءِ: الاستِماعُ لِحَديثِ القَومِ، وبالجيمِ: البحثُ عن العَوْراتِ.

وقيل: بالجيمِ: التَّفتيشُ عن بَواطِنِ الأمورِ، وأكثَرُ ما يُقالُ في الشَّرِّ، والجاسوسُ: صاحِبُ سِرِّ الشَّرِّ، والنَّاموسُ: صاحبُ سِرِّ الخَيرِ.

وقيل: بالجيمِ: أن تَطلُبَه لِغَيرِك، وبالحاءِ: أن تَطلُبَه لِنَفْسِك.

قاله ثعلبٌ.

وقيل: هما بمعنًى، وهو طلَبُ معرفةِ الأخبارِ الغائبةِ والأحوالِ).

((شرح النووي على مسلم)) (119/16).

(145) رواه البخاري (6064)، ومسلمٌ (2563) واللَّفظُ له.

وَلَا تَجَسَّسُوا.

أي: ولا تتَّبِعوا -أيُّها المؤمنونَ- عُيوبَ النَّاسِ وتُنَقِّبوا عنها، بلِ اتْرُكوهم، وعامِلوهم بحسَبِ ظَواهِرِهم.

عن ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((صَعِدَ رسولُ اللهِ - ﷺ - المِنبرَ، فنادَى بصَوتٍ رفيعٍ، فقال: يا مَعْشَرَ مَنْ أسلَمَ بلِسانِه، ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلْبِه، لا تُؤذوا المسلمينَ، ولا تُعَيِّروهم، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَن تَتبَّعَ عَورةَ أخيه المسلِمِ تَتبَّعَ اللهُ عَوْرتَه، ومَن تَتبَّعَ اللهُ عورتَه يَفضَحْه ولو في جَوفِ رَحْلِه)).(146)

وعن مُعاويةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((إنَّك إنِ اتَّبَعْتَ عَوْراتِ النَّاسِ أفسَدْتَهم، أو كِدْتَ أنْ تُفسِدَهم))، فقال أبو الدَّرْداءِ: (كلمةٌ سمِعَها مُعاويةُ مِن رسولِ اللهِ نفَعَه اللهُ تعالى بها).(147)

---

(146) أخرجه الترمذي (2032) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (5763).
قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ).
وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وصحَّح إسنادَه الزَّيْلَعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (344/3)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2032): (حسَنٌ صحيحٌ).
وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (5763).
(147) أخرجه أبو داود (4888) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (5760)، والطَّبَرانيُّ (379/19) (890).
صحَّحه ابنُ حِبان، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (4888)، وصحَّح إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (250/2)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4888).

وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

أي: ولا يَذكُرْ -أيُّها المؤمنونَ- بعضُكم بعضًا في حالِ غَيبتِه بما يَكرَهُ سَماعَه مِن عَيبٍ وقدْحٍ فيه.(148)

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((أتَدْرون ما الغِيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: ذِكرُك أخاكَ بما يَكرَهُ. قِيل: أفرَأيْتَ إنْ كان في أخي ما أقولُ؟ قال: إنْ كان فيه ما تقولُ فقدِ اغتَبْتَه، وإنْ لم يكُنْ فيه فقدْ بَهَتَّه)).(149)

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((إنَّ دِماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حَرامٌ، كحُرمةِ يَومِكم هذا، في شَهرِكم هذا، ألَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ منكم الغائبَ)).(150)

---

(148) قال ابنُ كثير (١٣/ ١٦٠): «الغِيبة محرَّمة بالإجماع، ولا يُستثنى من ذلك إلا مَن رجحت مصلحته، كما في الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله - ﷺ - لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة».

وكقوله - ﷺ - لفاطمة بنت قيس - رضي الله عنها - وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه».

وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بَقِيّتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٢١).

قال ابنُ تيمية (٦/ ٦٢ - ٦٣): «المغتاب له سبيل إلى التوبة بكل حال، وإن كان الذي اغتيب ميتًا أو غائبًا، بل على أصح الروايتين ليس عليه أن يستحلّه في الدنيا إذا لم يكن عَلِمَ؛ فإن فساد ذلك أكثر من صلاحه، وفي الأثر: «كفارة الغِيبة أن تستغفر لمن اغتبته»، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾».

(149) رواه مسلم (2589).

(150) رواه البخاري (105) واللفظ له، ومسلم (1679).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((بحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أنْ يحقِرَ أخاه المُسلِمَ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرامٌ: دَمُه، ومالُه، وعِرضُه)).(151)

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قلْتُ للنَّبِيِّ - ﷺ -: حَسْبُكَ مِن صَفيَّةَ كذا وكذا -تَعني: قصيرةً-، فقال: لَقد قلْتِ كلمةً لو مُزِجَت بماءِ البحرِ لَمَزجَتْه!)).(152)

وعن أبي بَرْزَةَ الأسْلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((يا مَعشرَ مَن آمَنَ بلِسانِه، ولم يَدخُلِ الإيمانُ قلْبَه، لا تَغتابُوا المسلمين، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَنِ اتَّبَعَ عَوْراتِهم يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرتَه، ومَن يتَّبِعِ اللهُ عَورتَه يَفضَحْه في بَيتِه)).(153)

أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ.

أي: أيُحِبُّ أحدُكم -أيُّها المؤمنونَ- أنْ يَأكُلَ لَحمَ أخيهِ بعْدَ مَماتِه؟ فإنْ كَرِهْتُم ذلك واشْمَأْزَزْتُم منه -لحُرْمتِه وبَشاعتِه- فاكْرَهوا كذلك غِيبةَ المسلمِ، وتَقذَّروا منها.

---

(151) رواه مسلم (2564).

(152) أخرجه أبو داودَ (4875) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (2502)، وأحمدُ (25560).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (118)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (5593/11)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4875)، وصحَّح إسنادَه على شرط مسلمٍ شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (361/42).

(153) أخرجه أبو داود (4880) واللَّفظُ له، وأحمد (19776).

جوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (250/2)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (4880): (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (4880).

وَاتَّقُوا اللَّهَ.

أي: واجْعَلوا بيْنَكم -أيُّها المؤمنونَ- وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابهِ وِقايةً بامتِثالِ أوامرِه، واجتنابِ نَواهِيه، ومِن ذلك تجنُّبُ ظَنِّ السُّوءِ بالمؤمنِ، وتَتبُّعِ عَوْراتِه، والتَّجسُّسِ عمَّا خَفِيَ مِن أمْرِه، واغتيابِه بما يَكرَهُه.

إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ يُوفِّقُ عِبادَه للتَّوبةِ ويَقبَلُها منهم، رَحيمٌ بهم فيَدْعوهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُغدِقُ عليهم نِعَمَه، ولا يُؤاخِذُهم بذُنوبِهم بعْدَ تَوبتِهم منها.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّا بدَأْنا خلْقَكم مِن أبيكم آدَمَ وأُمِّكم حوَّاءَ.(154)

(154) قال ابن عطية (٨/ ٢٣): «قوله تعالى: ﴿من ذكر وأنثى﴾ يحتمل أن يريد: آدم وحواء.
فكأنه قال: إنا خلقنا جميعكم من آدم وحواء.
ويحتمل أن يريد: الذكر والأنثى اسم الجنس.
فكأنه قال: إنّا خلَقنا كل واحد منكم من ماء ذكر وماء أنثى.
وقصد هذه الآية التسوية بين الناس».

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً [النساء: 1].

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا.

أي: وجعَلْناكم -أيُّها النَّاسُ- راجِعينَ في أنسابِكم إلى شُعوبٍ[155] وقَبائلَ؛ مِن أجْلِ أنْ يَحصُلَ التَّعارُفُ بيْنَكم بالانتِسابِ إليها، لا مِن أجْلِ أنْ يَفخَرَ بها بعضُكم على بعضٍ.

(155) قال ابنُ عطية (٨/ ٢٤): «والشُّعوب: جمع شعب، وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتبطًا بنسب واحد، ويتلوه القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الأسرة والفصيلة: وهما قرابة الرجل الأدنون، فمُضر وربيعة وحِمْير شعوب، وقيس وتيم ومذحج ومراد قبائل مشبهة بقبائل الرأس؛ لأنها قطع تقابلت، وقريش ومحارب وسليم عمارات، وبنو قصي وبنو مخزوم بطون، وبنو هاشم وبنو أمية أفخاذ، وبنو عبد المطلب أسرة وفصيلة، وقال ابن جُبير: الشعوب: الأفخاذ.
ورُوي عن ابن عباس: الشّعوب: البطون، وهذا غير ما تمالأ عليه اللغويون.
قال الثعلبي: وقيل: الشُّعوب في العجم، والقبائل في العرب، والأسباط في بني إسرائيل.
وأما الشّعب الذي هو في همدان الذي يُنسب إليه الشعبي فهو بطن يقال له الشعب.
وقيل للأمم التي ليست بعرب شعوبية نسبة إلى الشُّعوب، وذلك أنّ تفصيل أنسابها خفيٌّ، فلم يعرف أحد منهم إلا بأن يقال: فارسي تركي رومي، فكأنهم عرفوا بشعوبهم، وهي أعمّ ما يعبر به عن جماعتهم، ويقال لهم: الشَّعوبية -بفتح الشين-، وهذا من تعيين النّسب، وقد قيل فيهم غير ما ذكرت، وهذا أولى عندي».

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ.

أي: إنَّ أفضَلَكم وأشرَفَكم -أيُّها النَّاسُ- عندَ اللهِ تعالى أكثَرُكم تَقْوى له بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه، لا أشرَفُكم نَسَبًا، ولا أعظَمُكم عَشيرةً. (156)

---

(156) قال ابن كثير (١٣/ ١٧٣): «قد استدل بهذه الآية الكريمة، وهذه الأحاديث الشريفة مَن ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تُشترط، ولا يُشترط سوى الدين؛ لقوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾».

قال ابنُ جرير (٢١/ ٣٨٦ - ٣٨٧) مبيّنًا معنى الآية استنادًا إلى أقوال السلف: «يقول -تعالى ذِكْرُه-: إنّ أكرمكم -أيها الناس- عند ربكم أشدّكم اتقاءً له بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتًا، ولا أكثركم عشيرة».

وذكر أثر عقبة بن عامر، وأثر ابن عباس.

عن أبي هريرة، قال: سُئِل رسولُ الله - ﷺ -: أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم».

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم.

قال: «خِيارهم في الجاهلية خِيارهم في الإسلام إذا فَقِهوا» أخرجه البخاري ٤/ ١٤٠ (٣٣٥٣)، ٤/ ١٤٧ - ١٤٨ (٣٣٧٤)، ٤/ ١٤٩ (٣٣٨٣)، ٤/ ١٧٨ (٣٤٩٠)، ومسلم ٤/ ١٨٤٦ (٢٣٧٨).

قال ابنُ تيمية (٦/ ٦٤ - ٦٥) تعليقًا على هذا الحديث: "بيّن لهم أولًا: أنّ أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وإن لم يكن ابن نبي ولا أبا نبي، فإبراهيم النبي - ﷺ - أكرم على الله من يوسف، وإن كان أبوه آزر، وهذا أبوه يعقوب.

وكذلك نوح أكرم على الله من إسرائيل، وإن كان هذا أولاده أنبياء، وهذا أولاده ليسوا بأنبياء.

فلمّا ذكروا أنه ليس مقصودهم إلا الأنساب، قال لهم: فأكرم أهل الأنساب مَن انتسب إلى الأنبياء، وليس في ولد آدم مثل يوسف؛ فإنه نبي ابن نبي ابن نبي.

فلما أشاروا إلى أنه ليس مقصودهم إلا ما يتعلق بهم، قال: «أفعن معادن العرب تسألوني؟».

الناس معادن كمعادن الذهب والفِضّة، «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» بيّن أن الأنساب كالمعادن، فإن الرجل يتولد منه كما يتولّد من المعدن الذهب والفِضّة.

ولا ريب أن الأرض التي تُنبتُ الذّهب أفضل من الأرض التي تُنبت الفِضّة.

فهكذا مَن عُرِف أنه يلد الأفاضل، كان أولاده أفضل مِمَّن عُرِف أنه يلد المفضول.

لكن هذا سبب ومظنة، وليس هو لازمًا؛ فربما تعطلت أرض الذّهب، وربما قلَّ نَبْتها، فحينئذ تكون أرض الفِضّة أحبَّ إلى الإنسان من أرضٍ مُعطّلة، والفِضّة الكثيرة أحب إليهم من ذهبٍ قليل لا يماثلها في القدر، فلهذا كانت أهل الأنساب

عن أبي هريرةَ رضِي الله عنه قال: ((سُئِل رسولُ الله – ﷺ –: أيُّ النَّاسِ أكْرَمُ؟ قال: أكرمُهم عندَ الله أتْقاهم)).[157]

وعن أبي هريرةَ أيضًا، قال: قال رسولُ الله – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ لا يَنظرُ إلى صُورِكم وأموالِكم، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم)).[158]

وعن أبي هُرَيرةَ أيضًا، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخْرَهم بأقوامٍ؛ إنَّما هم فَحْمٌ مِن فحْمِ جهنَّمَ، أو لَيَكونُنَّ أهْوَنَ على اللهِ مِن الجِعْلانِ[159] الَّتي تَدفَعُ بأنْفِها النَّتْنَ))، وقال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ

---

الفاضـلة يُظن بهم الخير، ويُكرمون لأجل ذلك، فإذا تحقّق من أحدهم خلاف ذلك، كانت الحقيقة مُقدّمة على المظنّة، وأما [ما] عند الله فلا يثبت على المظان ولا على الدلائل، إنما يثبت على ما يعمله هو من الأعمال الصالحة، فلا يحتاج إلى دليل، ولا يجتزئ بالمظنّة، فلهذا كان أكرم الخلق عنده أتقاهم.

فإذا قُدّر تماثل اثنين عنده في التقوى تماثلًا في الدرجة، وإن كان أبو أحدهما أو ابنه أفضل من أبي الآخر أو ابنه، لكن إن حصل له بسبب نسبه زيادة في التقوى كان أفضل لزيادة تقواه.

ولهذا حصل لأزواج النبي – ﷺ – إذا قنتن لله ورسوله وعملن صالحًا، لا لمجرد المصاهرة، بل لكمال الطاعة، كما أنهن لو أتين بفاحشة مبيّنة لضوعف لهُنّ العذاب ضعفين؛ لقبح المعصية.

فإنّ ذا الشرف إذا ألزم نفسه التقوى كان تقواه أكمل من تقوى غيره، كما أنّ الملِك إذا عدل كان عدله أعظم من عدل الرجل في أهله.

ثم إنّ الرجل إذا قصد الخير قصدًا جازمًا، وعمل منه ما يقدر عليه، كان له أجر كامل، كما قال النبي – ﷺ – في الحديث الصحيح: «إن بالمدينة رجالًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم».

قالوا: وهم في المدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبَسهم العُذر».

ولهذا قال النبي – ﷺ – في الصحيح: «مَن دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور مَن اتّبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار مَن اتّبعه، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا».

(157) أخرجه البخاري (4689).

(158) أخرجه مسلم (2564).

(159) الجِعْلانُ: واحِدُه جُعَلٌ، وهي دُوَيْبَّةٌ سَوداءُ تكونُ في المواضِعِ النَّدِيَّة يُقالُ لها: الخُنفُساءُ.

قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ[160] وفَخْرَها بالآباءِ؛ مُؤمنٌ تقِيٌّ، وفاجرٌ شقِيٌّ، النَّاسُ بنو آدمَ، وآدَمُ مِن تُرابٍ)).[161]

وعن سَهلِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مَرَّ رجُلٌ على رسولِ اللهِ - ﷺ -، فقال: ما تَقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خطَب أنْ يُنكَحَ، وإنْ شَفَع أنْ يُشَفَّعَ، وإنْ قال أنْ يُستمَعَ. قال: ثمَّ سكَتَ، فمرَّ رجُلٌ مِن فُقراءِ المسلمينَ، فقال: ما تَقولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خطَبَ ألَّا يُنكَحَ، وإنْ شفَعَ ألَّا يُشفَّعَ، وإنْ قال ألَّا يُستمَعَ، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: هذا خَيرٌ مِن مِلْءِ الأرضِ مِثلَ هذا)).[162]

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ تامٍّ بعِبادِه، ذو خِبرةٍ كاملةٍ ببَواطِنِهم وسَرائِرِهم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ مِن أُمورِهم الظَّاهرةِ والباطِنةِ.

---

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3072/7)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (210/28).

(160) عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّةِ: أي: نَخْوَتَها وكِبْرَها.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3073/7).

(161) أخرجه أبو داود (5116)، والترمذي (3955)، وأحمد (10781) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، وصحَّح الحديث ابنُ تيميَّةَ في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (247/1)، وحسَّنَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (5116)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (5116)، وحسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (62/4).

(162) رواه البخاري (5091).

# سُورةُ الحُجُراتِ

## الآيات (14–18)

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ
تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18)

## غريب الكلمات:

**يَلِتْكُمْ**: أي: يَنقُصْكم، ويَظلِمْكم، مِن: لاتَ يَلِيتُ، واللَّيتُ: النَّقصُ، وفيه لُغةٌ أخرَى: ألَتَ يأْلَتُ.

**يَرْتَابُوا**: أي: يَشُكُّوا؛ وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخَوْفٍ.

**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ**: أي: يَعدُّونَ إسلامَهم مِنَّةً عليك، والمِنَّةُ تُطلَقُ على العَطيَّةِ، وعلى قَدْرِ العطيَّةِ عندَ مُعطيها، واعتِدادِه بها، والمَنُّ: تَعدادُ المُعطِي على المعطَى ما أعطاه، أو الاعتِدادُ بالصَّنيعةِ، وذِكرُها الَّذي يُكَدِّرُها. والمَنُّ: النَّقصُ مِن الحقِّ والبَخسُ له، ومِن هذا: المِنَّةُ المذمومةُ؛ لأنها تَنقُصُ النِّعمةَ وتُكَدِّرُها.

## تفسير الآيات:

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14).

**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا.**

أي: قال الأعرابُ –وهم سُكَّانُ الباديةِ مِن العرَبِ– للنَّبيّ – ﷺ –: آمَنَّا بما وجَبَ علينا الإيمانُ به.

**قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا.**

أي: قلْ –يا محمَّدُ– لأولئك الأعرابِ الَّذين ادَّعَوُا الإيمانَ: لم تُؤمِنوا بعْدُ إيمانًا كاملًا، فلا تَدَّعوا لأنفُسِكم هذا المقامَ، ولكنْ قُولوا: دخَلْنا في الإسلامِ، واقتَصِرُوا على هذا القولِ.(163)

---

(163) عن مجاهد بن جبر –من طريق ابن أبي نجيح– في قوله: ﴿ولكِنْ قُولُوا أسْلَمْنا﴾، قال: استَسْلمنا مخافة القتْل والسبيِ.
أخرجه سفيان الثوري ص ٢٧٩، وإسحاق البستي ص ٣٩٥ كلاهما من طريق قيس بن سعد، وابن جرير ٢١/ ٣٨٨.
وعزاه السيوطي إلى عَبد بن حميد، وابن المنذر.
عَلَّق ابنُ تيمية (٦/ ٧٧) على هذا القول بقوله: «وأما ما نقل من أنهم أسلموا خوْف القتْل والسبي فهكذا كان إسلام غير المهاجرين والأنصار، أسلموا رغبة ورهبة، كإسلام الطُّلَقاء من قريش بعد أن قهرهم النبي – ﷺ –، وإسلام المُؤلّفة قلوبهم من هؤلاء ومن أهل نَجد، وليس كل من أسلم لرغبة أو رهبة كان من المنافقين الذين هم في الدَّرْك الأسفل من النار، بل يدخلون في الإسلام والطاعة وليس في قلوبهم تكذيب ومعاداة للرسول، ولا استنارت قلوبهم بنور الإيمان ولا استبصروا فيه، وهؤلاء قد يحسن إسلام أحدهم فيصير من المؤمنين كأكثر الطُّلَقاء، وقد يبقى من فُسّاق الملة، ومنهم مَن يصير منافقًا مُرتابًا إذا قال له منكر ونكير: ما تقول في هذا الرجل الذي بعُث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلتُه.
وقد تقدم قول مَن قال: إنهم أسلموا بغير قتال.

فهؤلاء كانوا أحسن إسلامًا من غيرهم، وإنّ الله إنما ذمّهم لكوْنهم مَنُّوا بالإسلام وأنزل فيهم: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ [محمد: ٢٣]، وأنهم من جنس أهل الكبائر.

وأيضًا قوله: ﴿ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾، و» لما «إنما يُنفى بها ما يُنتَظَر ويكون حصوله مترقّبًا؛ كقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ [البقرة: ٢١٥]، فقوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ يدل على أنّ دخول الإيمان منتظرٌ منهم؛ فإنّ الذي يدخل في الإسلام ابتداء لا يكون قد حصل في قلبه الإيمان، لكنه يحصل فيما بعد كما في الحديث: كان الرجل يُسلم أول النهار رغبة في الدنيا فلا يجيء آخر النهار إلا والإسلام أحبّ إليه مما طلعت عليه الشمس.

ولهذا كان عامة الذين أسلموا رغبة ورهبة دخل الإيمان في قلوبهم بعد ذلك، وقوله: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أمرٌ لهم بأن يقولوا ذلك والمنافق لا يؤمر بشيء، ثم قال: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾ والمنافق لا تنفعه طاعة الله ورسوله حتى يؤمن أولًا».

قال ابنُ عطية (٨/ ٢٥ - ٢٦ بتصرف): «هم أعراب مخصوصون، وقد أخبر الله تعالى أنّ في الأعراب على الجملة مَن يؤمن بالله واليوم الآخر، فأمر الله تعالى نبيّه - ﷺ - أن يقول لهؤلاء المُدَّعين في الإيمان: ﴿لم تؤمنوا﴾ أي: لم تصدِّقوا بقلوبكم، ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾.

والإسلام يقال بمعنيين: أحدهما: الدّين يعم الإيمان والأعمال، وهو الذي في قوله: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩]، والذي في قوله - ﷺ -: «بُني الإسلام على خمس».

والذي في تعليم النبي - ﷺ - لجبريل حين قال له: ما الإسلام؟ قال: «أن تعبد الله وحده ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان».

والذي في قوله لسعد بن أبي وقاص: «أو مسلمًا، إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه» الحديث.

فهذا الإسلام ليس هو في قوله: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾.

والمعنى الثاني للفظ الإسلام: هو الاستسلام والإظهار الذي يستعصم به ويحقن الدم، وهذا هو الإسلام في قوله: ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾، والإيمان الذي هو التصديق أخص من الأول».

وقال ابنُ كثير (١٣/ ١٧٤): «قد استُفِيد من هذه الآية الكريمة أنّ الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل - عليه السلام - حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقّى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه».

عن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قسَمَ رسولُ اللهِ – ﷺ – قَسْمًا، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أعْطِ فُلانًا؛ فإنَّه مُؤمنٌ، فقال النَّبيُّ – ﷺ –: أوْ مُسلِمٌ. أقولُها ثلاثًا، ويُرَدِّدُها علَيَّ ثلاثًا: أوْ مُسلمٌ، ثمَّ قال: إنِّي لَأُعْطي الرَّجُلَ وغيرُه أحبُّ إلَيَّ منه؛ مَخافةَ أنْ يَكُبَّه اللهُ في النَّارِ)).[164]

وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ.

أي: ولمْ يَدخُلِ الإيمانُ الكاملُ وحَقائقُ مَعانيه بعْدُ في قُلوبِكم، أيُّها المُدَّعونَ بُلوغَ مَنزِلةِ الإيمانِ.[165]

---

(164) رواه البخاريُّ (27)، ومسلمٌ (150) واللَّفظُ له.

(165) اختُلِف في السبب الذي من أجله قيل للنبي – ﷺ –: قل لهؤلاء الأعراب: قولوا أسلمنا، ولا تقولوا آمنا، على ثلاثة أقوال: الأول: أنه أُمِرَ – ﷺ – بذلك لأن القوم كانوا صدَّقوا بألسنتهم، ولم يصدِّقوا قولَهم بفعلِهم، فقيل لهم: قولوا أسلمنا؛ لأن الإسلام قول، والإيمان قول وعمل.

والثاني: أنه أُمِرَ – ﷺ – بذلك لأنهم أرادوا أن يتسمَّوا بأسماء المهاجرين قبل أن يهاجروا، فأعلمهم الله أن لهم أسماء الأعراب، لا أسماء المهاجرين.

والثالث: أنه أُمِرَ – ﷺ – بذلك لأن القوم مَنُّوا على رسول الله – ﷺ – بإسلامهم، فقال الله لنبيّه – ﷺ –: قل لهم لم تؤمنوا، ولكن استسلمتم خوف السباء والقتل.

وعلَّقَ ابنُ كثير (١٣/ ١٧٥) على القول الأول بقوله: «هذا معنى قول ابن عباس – رضي الله عنهما –، وإبراهيم النخعي، وقتادة، واختاره ابن جرير».

ورجَّحَ ابن جرير (٢١/ ٣٩٢)، وكذا ابنُ كثير القولَ الأولَ –وهو قول الزُّهريّ، وإبراهيم النخعيّ، وغيرهما– استنادًا إلى ظاهر الآيات، والدلالة العقلية، فقال ابنُ جرير: «وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن الزُّهريّ، وهو أنّ الله تقدم إلى هؤلاء الأعراب الذين دخلوا في الملة إقرارًا منهم بالقول، ولم يحققوا قولهم بعملهم أن يقولوا بالإطلاق: آمنّا. دون تقييد قولهم بذلك بأن يقولوا: آمنا بالله ورسوله.

ولكن أمرهم أن يقولوا القول الذي لا يُشْكِل على سامعيه، والذي قائله فيه محق، وهو أن يقولوا: أسلمنا. بمعنى: دخلنا في الملة، وحقنّا الدماء والأموال، بشهادة الحقّ».

وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا.

أي: وإنْ تُطِيعوا اللهَ ورسولَه لا يَنقُصْكم اللهُ مِن ثَوابِ أعمالِكم الصَّالِحةِ أيَّ شَيءٍ منها.

---

وقال ابنُ كثير (١٣/ ١٧٥): «الصحيح الأول، أنهم قوم ادَّعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأُدِّبوا وأُعلِموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعُنِّفوا وفُضِحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: ﴿قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد».

وهو ظاهر كلام ابن القيم (٣/ ٩ بتصرف)، حيث قال: «قوله تعالى: ﴿قالَتِ الأعْرابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولَكِنْ قُولُوا أسْلَمْنا﴾ نفيًا للإيمان المطلق، لا لمطلق الإيمان؛ لوجوه: منها: أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا: أسلمنا.

والمنافق لا يقال له ذلك.

ومنها: أنه قال: ﴿قالَتِ الأعْرابُ﴾ ولم يقل: قال المنافقون.

ومنها: أن هؤلاء الجُفاة الذين نادوا رسول الله - ﷺ - من وراء الحُجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظةً منهم وجفاء لا نفاقًا وكفرًا.

ومنها: أنه قال: ﴿ولَمّا يَدْخُلِ الإيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ولم ينفِ دخول الإسلام في قلوبهم، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان.

ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿وإنْ تُطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِن أعْمالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له.

ومنها: أنه قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أنْ أسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ﴾ فأثبت لهم إسلامهم، ونهاهم أن يمنّوا على رسول الله - ﷺ -، ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا لقال: لم تسلموا بل أنتم كاذبون.

كما كذَّبهم في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] لَمّا لم تطابق شهادتُهم اعتقادهم.

ومنها: أنه قال: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ ولو كانوا منافقين لما منّ عليهم.

ومنها: أنه قال: ﴿أنْ هَداكُمْ لِلإيمانِ﴾ ولا ينافي هذا قوله: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ فإنّه نفى الإيمان المطلق، ومَنَّ عليهم بهدايتهم إلى الإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها: أن النبي - ﷺ - لما قسم القسم قال له سعد: أعطيتَ فلانًا وتركت فلانًا وهو مؤمن! فقال: «أو مسلم» ثلاث مرات.

وأثبت له الإسلام دون الإيمان.

والمقصود: الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان؛ فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها».

وبنحوه قال ابنُ تيمية (٦/ ٧١ - ٧٥).

قال ابنُ تيمية (٦/ ٦٩) تعليقًا على الآية: «دلَّ البيانُ على أنّ الإيمان المنفيَّ عن هؤلاء الأعراب: هو هذا الإيمان الذي نُفي عن فُسّاق أهل القبلة الذين لا يُخلَّدون في النار، بل قد يكون مع أحدهم مثقال ذرّة من إيمان، ونفيُ هذا الإيمان لا يقتضي ثبوت الكفر الذي يخلَّد صاحبه في النار».

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ غفورٌ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه قَبولُه تَوبتَهم، وإكرامُهم بنِعَمِه.(166)

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15).

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا.

أي: إنَّما المؤمنون حقًّا همُ الَّذين آمَنوا باللهِ ورسولِه، ثمَّ لم يشُكُّوا في وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وصِدقِ نُبوَّةِ نَبيِّه، ووُجوبِ طاعتِهما، وثَبَتوا على ذلك، ولم يَتزلْزَلوا.

(166) قال ابنُ جرير (٢١/ ٣٩٤) مبيّنًا معنى الآية: «يقول –تعالى ذكره–: إن الله ذو عفوٍ –أيها الأعراب– لِمَن أطاعه، وتاب إليه مِن سالف ذنوبه، فأطيعوه، وانتهوا إلى أمره ونهيه، يغفر لكم ذنوبكم، ﴿رحيم﴾ بخَلْقه التائبين إليه أن يعاقبهم بعد توبتهم من ذنوبهم على ما تابوا منه، فتوبوا إليه يرحمكم».

كما قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [الأنفال: 2 – 4].

وقال سُبحانه: إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [النور: 51].

وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

أي: وهمْ أيضًا مَنْ جاهَدُوا أعداءَ اللهِ بإنفاقِ أموالِهم، وبَذْلِ أرواحِهم في قِتالِهم، مُخلِصينَ للهِ تعالى؛ لِتَكونَ كَلمتُه هي العُلْيا.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [الأنفال: 74].

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ.

أي: أولئك الَّذين يُؤمِنونَ باللهِ ورسولِه بلا ارتيابٍ، ويُجاهِدونَ في سَبيلِ الله بأمْوالِهم وأنفُسِهم؛ همُ الصَّادِقونَ في إيمانِهم حقًّا، لا الَّذين يَدَّعونَ الإيمانَ من غيرِ تحقيقٍ.

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(16).

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

أي: قُل –يا محمَّدُ– للأعرابِ الَّذين ادَّعَوُا الإيمانَ: أتُخْبِرونَ اللهَ بما في قُلوبِكم مِن الإيمانِ حِينَ قُلْتُم: آمَنَّا، والحالُ أنَّه يَعلَمُ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن الأشياءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ؟! فاللهُ لا يَخْفَى عليه حالُكم، وليس بحاجةٍ لإخبارِه بما في قُلوبِكم.

كما قال الله تبارك وتعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ [آل عمران: 5].

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، فاحْذَروا أنْ تَقولوا خِلافَ ما في قُلوبِكم؛ فاللهُ يَعلَمُ ما فيها مِن الإيمانِ أو غَيرِه.

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17).

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا.

أي: يَمُنُّ هؤلاءِ الأعرابُ عليك -يا محمَّدُ- إسلامَهم، فيَذْكُرونه لك ذِكْرَ مَن قدَّم لك مَعروفًا، وأسْدى إليك خَيرًا!

قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: قُل لهم -يا محمَّدُ-: لا تَمُنُّوا علَيَّ إسلامَكم؛ فليس لكم مِنَّةٌ علَيَّ في ذلك، ونفْعُ إسلامِكم يَعودُ عليكم، وإنَّما للهِ المِنَّةُ عليكم بالتَّوفيقِ للإيمانِ إنْ كُنتم صادِقِينَ في ادِّعائِكمُ الإيمانَ.[167]

عن عبدِ اللهِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - لَمَّا فتَحَ حُنَيْنًا قسَمَ الغنائمَ، فأعْطى المؤلَّفةَ قُلوبَهم، فبلَغَه أنَّ الأنصارَ يُحِبُّون أنْ يُصِيبوا ما أصاب النَّاسُ، فقام رسولُ اللهِ - ﷺ - فخطَبَهم؛ فحمِدَ اللهَ وأثْنَى عليه، ثمَّ قال: يا مَعشرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهَداكُمُ اللهُ بي؟ وعالةً فأغْناكم اللهُ بي؟ ومُتفرِّقِينَ فجمَعَكُم اللهُ بي؟ ويَقولون: اللهُ ورسولُه أمَنُّ))[168].[169]

---

(167) قال ابنُ عطية (٨/ ٢٧): «وقوله تعالى: ﴿يمن عليكم﴾ يحتمل أن يكون بمعنى: ينعم، كما تقول: منّ الله عليك. ويحتمل أن يكون بمعنى: يذكر إحسانه، فيجيء معادلًا لـ ﴿يمنون عليك﴾، وقال الناس قديمًا: إذا كفرت النعمة حسُنت المنّة. وإنما المنّة المُبطلة للصدقة المكروهة ما وقع دون كُفر النعمة».

(168) أمَنُّ: أفعَلُ تفضيلٍ مِنَ المَنِّ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (50/8).

(169) رواه البخاريُّ (4330)، ومسلمٌ (1061) واللَّفظُ له.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (18).

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: إنَّ اللهَ يَعلمُ كلَّ ما غاب في السَّمواتِ وفي الأرضِ، ومِن ذلك عِلْمُه بالصَّادقِ مِن الكاذبِ، وعِلْمُه بما تُخفِيه السَّرائرُ والضَّمائرُ، فلا يَخْفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

كما قال تعالى: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ [غافر: 19].

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ.

أي: واللهُ ذو بَصرٍ بأعمالِكم كلِّها؛ خَيرِها وشَرِّها، ظاهِرِها وباطِنِها، ويُجازيكم عليها بما تَستحِقُّونه مِن ثَوابٍ أو عِقابٍ.

# تَفْسِيرُ
# سُورَةِ ق

سُورةُ ق

## سُورةُ ق

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ ق، وق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ،[170] وممَّا يدُلُّ على ذلك:

1- أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سَأَلَ أبا واقِدٍ اللَّيثيَّ: ((ما كان يَقرَأُ به رَسولُ اللهِ - ﷺ - في الأَضحَى والفِطرِ، فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ [ق: 1]، واقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر: 1])).[171]

---

(170) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بـ ق، أو: ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ لافتِتاحِها بهما.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/437).

قال ابنُ عاشور: (وهي مِنَ السُّوَرِ التي سُمِّيَت بأسماءِ الحُروفِ الواقِعةِ في ابتدائِها، مِثلُ: طه، وص، وق، ويس؛ لانفِرادِ كُلِّ سُورةٍ منها بعدَدِ الحُروفِ الواقِعةِ في أوائِلِها، بحيثُ إذا دُعِيَت بها لا تلتَبِسُ بسُورةٍ أُخرى).

((تفسير ابن عاشور)) (26/273).

(171) أخرجه مسلم (891).

2- عن أمِّ هِشامٍ بِنتِ حارِثةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((لقدْ كان تَنُّورُنا[172] وتَنُّورُ رَسولِ اللهِ - ﷺ -واحِدًا سَنَتينِ أو سَنةً وبَعضَ سَنةٍ، وما أَخذْتُ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ إلَّا عن لِسانِ رَسولِ اللهِ - ﷺ -؛ يَقرَؤُها كُلَّ يومِ جُمُعةٍ[173] على المِنبَرِ إذا خطَب النَّاسَ)).[174]

وفي رِوايةٍ: ((مَا حَفِظْتُ ق إلَّا مِنْ فِي رَسولِ اللهِ - ﷺ -...)).[175]

3- عن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ - ﷺ -كان يَقرَأُ في الفَجرِ بـ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وكانتْ صلاتُه بَعْدُ تخفيفًا)).[176]

## فضائل السورة وخصائصها:

1- يُستَحَبُّ قِراءتُها على المِنبَرِ يَومَ الجُمُعةِ:

---

(172) التَّنُّور: الَّذي يُخْبَزُ فيه.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (1/ 199)، ((لسان العرب)) لابن منظور (4/ 95).

(173) قيل: المرادُ يَقرأُ أولَ السُّورةِ لا جميعَها.

وقيل: كان يَقرأُ في كُلِّ جُمعةٍ بعضَها، فحَفِظَت الكلَّ.

وقيل: لعلَّ المرادَ جُمُعاتٌ حضَرَت أمُّ هشامٍ فيها.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3/ 1044)، ((لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح)) للدهلوي (3/ 523).

(174) أخرجه مسلم (873).

(175) أخرجه مسلم (873).

(176) أخرجه مسلم (458).

عن أمِّ هِشامٍ بنتِ حارِثةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: ((ما أَخذْتُ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ إلَّا عن لِسانِ رَسولِ اللهِ – ﷺ –؛ يَقرؤُها كُلَّ يومِ جُمُعةٍ على المِنبَرِ إذا خَطَب النَّاسَ)).[177]

2- كان النَّبيُّ – ﷺ – يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صَلاةِ العِيدِ:

عن أبي واقِدٍ اللَّيثيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ –: كان يَقرأُ في الفِطرِ والأضْحَى بـ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ [ق: 1]، واقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ [القمر: 1])).[178]

3- أنَّ سُورةَ (ق) هي أوَّلُ المُفصَّلِ،[179] على ما رَجَّحه بَعضُ أهلِ العِلمِ.[180]

---

(177) أخرجه مسلم (873).

قال النَّووي: (قال العُلَماءُ: سَبَبُ اختيارِ ق أنَّها مُشتَمِلةٌ على البَعثِ والمَوتِ، والمواعِظِ الشَّديدةِ، والزَّواجِرِ الأكيدةِ،... وفيه استِحبابُ قِراءةِ ق أو بَعضِها في كُلِّ خُطبةٍ).

((شرح النووي على مسلم)) (6/161).

(178) أخرجه مسلم (891).

وقال ابنُ كثير: (والقَصدُ أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – كان يَقرَأُ بهذه السُّورةِ في المجامِعِ الكِبارِ، كالعِيدِ والجُمَعِ؛ لاشتِمالِها على ابتِداءِ الخَلقِ، والبَعثِ والنُّشورِ، والمَعادِ والقِيامِ، والحِسابِ، والجنَّةِ والنَّارِ، والثَّوابِ والعِقابِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ).

((تفسير ابن كثير)) (7/393).

(179) قال السُّيوطي: (والمُفَصَّلُ...

سُمِّيَ بذلك لكَثرةِ الفُصولِ التي بيْنَ السُّوَرِ بالبَسملةِ.

وقيلَ: لقِلَّةِ المنسوخِ منه؛ ولهذا يُسَمَّى بالمُحْكَمِ أيضًا، كما روَى البُخاريُّ عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: «إنَّ الذي تَدْعونه المُفَصَّلَ هو المُحكَمُ»، وآخِرُه سورةُ النَّاسِ بلا نِزاعٍ.

واختُلِفَ في أوَّلِه على اثنَيْ عَشَرَ قَولًا).

((الإتقان في علوم القرآن)) (1/221).

(180) ومِمَّن اختار أنَّ المُفَصَّلَ يَبدأُ مِن سُورةِ ق إلى آخِرِ القُرآنِ: أبو الوَليدِ ابنُ رُشدٍ الجَدُّ، وابنُ كثيرٍ، والبقاعيُّ، وابن حَجرٍ، ومَرعي الكرميُّ، والشَّوكانيُّ.

سورةُ ق مَكِّيَّةٌ،[181] وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.[182]

## مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

تقريرُ أُصولِ الإيمانِ: البَعثُ والنُّشورُ، والنبُوَّةُ.

## مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي اشتمَلت عليها هذه السُّورةُ:

1- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، والتَّنويهُ بشَأنِه.

---

يُنظر: ((البيان والتحصيل)) لابن رشد الجد (1/295)، ((تفسير ابن كثير)) (7/392)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (3/ 17)، ((فتح الباري)) لابن حجر (2/195)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: 194)، ((تفسير الشوكاني)) (5/83).

وقال الزَّرْكشيُّ: (والصَّحيحُ عندَ أهلِ الأثَرِ أنَّ أوَّلَه ق).

((البرهان في علوم القرآن)) (1/246).

ويُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (2/55).

وقال ابنُ حجر: (واختُلِفَ في أوَّلِ المُفَصَّلِ مع الاتِّفاقِ على أنَّه آخِرُ جُزءٍ مِنَ القُرآنِ).

((فتح الباري)) (9/84).

وقال السُّيوطيُّ: (فائِدةٌ: للمُفَصَّلِ طِوالٌ وأوساطٌ وقِصارٌ؛ قال ابنُ مَعْنٍ: فطِوالُه إلى عَمَّ، وأوساطُه منها إلى «الضُّحَى»، ومنها إلى آخِرِ القُرآنِ قِصارُه.

هذا أقرَبُ ما قيلَ فيه).

((الإتقان في علوم القرآن)) (1/222).

(181) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا قولَه تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ [ق: 38]، فمَدَنيٌّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (21/400)، ((تفسير الماوردي)) (5/339)، ((تفسير الزمخشري)) (4/379).

(182) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (5/138)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/437).

ذكر ابنُ عطية (٨/ ٢٩) أن هذه السورة مكية بإجماع من المتأولين.

2- ذِكرُ دَعاوَى المُشرِكِينَ وإنكارِهم للنبُوَّةِ والبَعثِ، والرَّدُّ عليهم.

3- الحَثُّ على النَّظَرِ في خَلقِ السَّمَواتِ وما فيها، وخَلقِ الأرضِ وما عليها، ونَشأةِ النَّباتِ والثِّمارِ، وأنَّ ذلك مَثَلٌ للإحياءِ بعدَ الموتِ.

4- التَّذكيرُ بسُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ السَّابِقينَ، وما استحَقُّوا مِن وَعيدٍ وعَذابٍ.

5- التَّذكيرُ بعِلمِ اللهِ تعالَى الشَّامِلِ لكُلِّ شَيءٍ.

6- ذِكرُ سكراتِ الموتِ ومشاهدَ مِن يومِ القيامةِ وأهوالِها، وما يَجري فيها.

7- وَعْدُ المؤمنينَ بالجَنَّةِ في الآخِرةِ، مع ذِكرِ أهَمِّ صِفاتِهم.

8- تَسليةُ الرَّسولِ - ﷺ - عمَّا أصابه مِن قَومِه، وإرشادُه إلى ما يُعينُه على مُداوَمةِ الصَّبرِ؛ مِنَ التَّسبيحِ آناءَ اللَّيلِ، وأطرافَ النَّهارِ، وأدبارَ السُّجودِ.

9- أمرُ الرَّسولِ - ﷺ - بالتذكيرِ بالقرآنِ مَن يخافُ وعيدَ الله ويخشَى عقابَه.

# سُورةُ ق

## الآيات (1–5)

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ
عَجِيبٌ (2) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ
وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)

## غريب الكلمات:

**الْمَجِيدِ**: أي: الكَريمِ، الشَّريفِ، والمَجْدُ: بُلوغُ النِّهايةِ في الكرَمِ، ووُصِف القرآنُ بذلك لكثرةِ ما يَتضمَّنُ مِن المكارمِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، والمجدُ أيضًا: الشَّرفُ الواسِعُ، وأصلُ (مجد): يدُلُّ على بُلوغِ النِّهايةِ، ولا يكونُ إلَّا في محمودٍ.

**مُنْذِرٌ**: أي: مُحَذِّرٌ ومُخَوِّفٌ، وأصْلُ الإنذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ.

**رَجْعٌ**: أي: إعادةٌ، يُريدون البَعثَ بعدَ الموتِ، وأصْلُ (رجع): يدُلُّ على ردٍّ وتَكرارٍ.

**مَرِيجٍ**: أي: مُختَلِطٍ، وأصْلُ (مرج): يدُلُّ على الخَلطِ.

## تفسير الآيات:

ق وَالْقُرْآَنِ الْمَجِيدِ (1).

ق.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهذا الحرفِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ لبيانِ إعجازِه؛ حيثُ تُظهِرُ عجزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، معَ أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها.(183)

---

(183) قال مقاتل بن سليمان: ﴿ق﴾ جبل مِن زُمُرُّدة خضراء، محيط بالعالم، فخُضرة السماء منه، ليس من الخلْق شيء على خَلْقه، وتنبت الجبال منه، وهو وراء الجبال، وعروق الجبال كلّها مِن قاف، فإذا أراد الله تعالى زلزلة أرضٍ أوحى إلى المَلَك الذي عنده أن يُحَرِّك عِرقًا مِن الجبل، فتتحرك الأرض التي يريد، وهو أول جبل خُلِقَ، ثم أبو قبيس بعده، وهو الجبل الذي الصفا تحته ودون قاف بمسيرة سنة، جبلٌ تغرب فيه الشمس، يُقال له: الحجاب، فذلك قوله: ﴿حَتّى تَوارَتْ بِالحِجابِ﴾ [ص: ٣٢] يعني: بالجبل، وهو من وراء الحجاب، وله وجهٌ كوجه الإنسان، وقلبٌ كقلوب الملائكة في الخشية لله.

تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ١٠٩.

انتقد ابنُ كثير (١٣/ ١٨٠) القول بأن «ق»: جبل محيط بالأرض مستندًا للدلالة العقلية، فقال: «وكأنّ هذا –والله أعلم– من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يُصدّق ولا يُكذّب.

وعندي أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يُلبّسون به على الناس أمر دينهم، كما افْتُري في هذه الأمة –مع جلالة قدْر علمائها وحفّاظها وأئمتها– أحاديث عن النبي – ﷺ – وما بالعهد مِن قِدَم، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى، وقلّة الحفّاظ النُّقّاد فيهم، وشُرْبهم الخمور، وتحريف علمائهم الكَلِم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارعُ الرواية عنهم في قوله: «وحدِّثوا عن بني إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوّزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويُحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظّنون كذبه، فليس من هذا القبيل».

ونقل (١٣/ ١٨١) قولًا آخر بأن المراد بـ ﴿ق﴾: «قُضي الأمر، والله».

وأن قوله: ﴿ق﴾ دلّتْ على المحذوف من بقيّة الكَلِم كقول الشاعر:

قلت لها: قفي فقالت: قاف

وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

أي: أُقْسِم بالقُرآنِ الكريمِ، الواسعِ المعاني، الشَّريفِ، ذي الصِّفاتِ العظيمةِ الكامِلةِ.

كما قال تعالى: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج: 21، 22].

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2).

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ.

أي: بلْ تَعَجَّبوا واستَنكَروا مَجيءَ رَسولٍ مِنَ البَشَرِ يُحَذِّرُهم مِن عَذابِ اللهِ تعالى.(184)

---

وانتقده مستندًا للغة، فقال: «وفي هذا التفسير نظر؛ لأنّ الحذف في الكلام إنما يكون إذا دلّ دليل عليه، ومِن أين يُفهم هذا من ذِكر هذا الحرف؟».

وساق ابنُ عطية (٨/ ٣٠ – ٣١) الأقوال الواردة عدا قول القُرظيّ، ثم علَّق بقوله: «و﴿ق﴾ على هذه الأقوال: مُقسَم به وبالقرآن المجيد، وجواب القسم منتظَر».

وذكر القول الذي قاله ابن كثير، وذكر أقوالًا غيرها، فقال: «قال القُرظيّ: هو دال على أسماء الله تعالى هي: قادر، وقاهر، وقريب، وقاض، وقابض.

وقيل: المعنى: قُضي الأمر من رسالتك ونحوه، ﴿والقرآن المجيد﴾ فجواب القسم في الكلام الذي يدل عليه قاف.

وقال قوم: المعنى: قِف عند أمرنا.

وقيل المعنى: قُهر هؤلاء الكفرة، وهذا أيضًا وقع عليه القسَم».

ثم أورد احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون المعنى: قيامهم من القبور حق، والقرآن المجيد».

وعلق عليه بقوله: «فيكون أول السورة مِن المعنى الذي اطَّرد بعد»، ثم قال: «وعلى هذه الأقوال فثَمّ كلام مضمر عنه وقع الإضراب، كأنه قال: ما كذّبوك ببرهان، ونحو هذا مما يليق مظهرًا.

(184) على هذا القول فالضمير في قوله: ﴿عجبوا﴾ للكافرين، وكرّر الكلام تأكيدًا ومبالغة، وهو ما ذكره ابنُ عطية (٨/ ٣٢)، ثم بيّن أن الإشارة بـ ﴿هذا﴾ عليه تحتمل احتمالين: الأول: أن تكون إلى نفس مجيء البشر.

الثاني: أن تكون إلى القول الذي يتضمنه الإنذار، وهو الخبر بالبعث.

وعلَّق عليه بقوله: «ويؤيد هذا القول ما يأتي بعد».

كما قال الله تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33].

وقال سُبحانه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: 2].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 94].

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

أي: فقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنَّه لشَيءٌ مُستغرَبٌ ومُستبعَدٌ أنْ يأتيَنا رَسولٌ مِنَ البَشَرِ يُنذِرُ بعَذابٍ بعدَ الموتِ!

---

وساق قولًا آخر وهو: أن يكون الضمير لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم.

وعلَّق عليه بقوله: «لأن كل مفطور عجِب من بعثة بشـــر رســـولًا لله، لكن المؤمنون نظروا واهتدوا، والكافرون بقوا في عمايتهم، وصمّوا وحاجّوا بذلك العجب، ولذلك قوله تعالى: ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾».

## أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3).

**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا.**

أي: قال المُشرِكونَ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا نُبعَثُ أحياءً بعْدَ ذلك، ونَرى ما وُعِدْنا مِن العَذابِ؟!

كما قال تعالى: بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [المؤمنون: 81 – 83].

**ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.**

أي: قال المُشرِكونَ: رَدُّنا أحياءً بعدَ مَوتِنا وصَيْرورتِنا تُرابًا وعِظامًا، بَعيدٌ وقوعُه، ومحالٌ حُدوثُه![185]

---

(185) قال ابن جرير (٢١/ ٤٠٣ – ٤٠٤): «في هذا الكلام متروكٌ استُغْنِي بدلالة ما ذُكر عليه مِن ذكره، وذلك أنّ الله دلّ بخبره عن تكذيب هؤلاء المشركين الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عن تكذيبهم رسوله محمدًا – ﷺ – بقوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ على وعيده إيّاهم على تكذيبهم محمدًا – ﷺ –، فكأنه قال لهم – إذ قالوا منكرين رسالة الله رسوله محمدًا – ﷺ –: ﴿هذا شيء عجيب﴾ –: ستعلمون –أيها القوم– إذا أنتم بُعثتم يوم القيامة ما يكون حالكم في تكذيبكم محمدًا – ﷺ –، وإنكاركم نبوته.

فقالوا مجيبين رسول الله – ﷺ –: ﴿أئذا متنا وكنا ترابا﴾ نعلم ذلك، ونرى ما تعِدنا على تكذيبك ﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي: أن ذلك غير كائن، ولسنا راجعين أحياء بعد مماتنا.

فاستغني بدلالة قوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ مِن ذِكر ما ذكرت مِن الخبر عن وعيدهم».

ثم ذكر أن قول الضّحّاك فيه دلالة على صحة ما قاله مِن أنهم أنكروا البعث إذا تُوعّدوا به.

## قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (4).

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ.

أي: قدْ عَلِمْنا ما تأكُلُ الأرضُ مِن أجسادِهم بعدَ موتِهم، ولا يَخْفى علينا شَيءٌ مِن أجزاءِ أجسامِهم المتفرِّقةِ؛ فلا يظُنَّ الكافِرونَ أنَّنا غيرُ قادِرينَ على إحيائِهم إذا ماتوا وصاروا تُرابًا.[186]

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((ليْس مِنَ الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ،[187] ومنه يُركَّبُ الخَلْقُ يومَ القِيامةِ)).[188]

وعن أَوسِ بنِ أَوسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((إنَّ مِن أفضَلِ أيَّامِكم يومَ الجُمُعةِ؛ فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه النَّفخةُ، وفيه الصَّعقةُ، فأكثِروا علَيَّ مِن الصَّلاةِ فيه؛ فإنَّ صَلاتَكم مَعروضةٌ علَيَّ.

---

(186) نقل ابن عطية (٨/ ٣٣) عن الثعلبي أنّ ابن عباس قال: معناه: قد علمنا ما تنقص أرض بالإيمان من الكفرة الذين يدخلون في الإيمان.

وانتقده مستندًا للسياق، فقال: «وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبلُ وبعدُ».

وذكر أنّ حفظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة، وأن هذا هو الحق.

ونقل عن بعض الأصوليين أنهم ذهبوا إلى أن الأجساد المُبعثرة المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه.

وانتقده مستندًا للقرآن، فقال: «وهذا عندي خلافٌ لظاهر كتاب الله، ولو كانت غيرها فكيف كانت تشهد الأيدي والأرجل على الكفرة إلى غير ذلك مما يقتضي أنّ أجساد الدنيا هي التي تعود»

(187) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظْمُ اللَّطيفُ الَّذي في أسفلِ فَقارِ الظَّهرِ، وأعْلَى ما بينَ الأَلْيتَين، وهو رأسُ العُصعُصِ.

يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (1/ 268)، ((شرح النووي على مسلم)) (18/ 92)، ((طرح التثريب)) للعراقي (3/ 307).

(188) رواه البخاريُّ (4935)، ومسلمٌ (2955).

فقال رجلٌ: يا رَسولَ اللهِ، كيف تُعرَضُ صَلاتُنا عليك وقد أَرَمْتَ؟! -يعني: بَلِيتَ- فقال: إنَّ اللهَ حَرَّم على الأرضِ أنْ تأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ)).(189)

وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ.

أي: وعِندنا كِتابٌ يحوي كلَّ شَيءٍ، وحافِظٌ لكلِّ شَيءٍ، وهو محفوظٌ مِن الشَّياطينِ ومِن التغيُّرِ.

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5).

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ.

أي: بلْ سارَعوا إلى التَّكذيبِ بالقُرآنِ حينَ جاءَهم.

فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ.

أي: فهُم في أمْرٍ مُختلِطٍ مُضطَرِبٍ مُلتبِسٍ عليهم.(190)

---

(189) أخرجه أبو داود (1047)، والنَّسائيُّ (1374)، وابن ماجه (1636) واللفظ له، وأحمد (16162).

صَحَّحه على شرْط الشَّيخينِ: الحاكمُ في ((المستدرك)) (5/776)، ومحمد بن عبد الهادي في ((الصارم المُنْكي)) (336)، وابن باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (2/206)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (1636)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (4/548)، وذكَرَ ثُبوتَه ابنُ تيميَّة في ((حقوق آل البيت)) (60)، وصحَّحه لغيره شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (1047).

(190) اختُلف في قوله: ﴿مريج﴾ على أقوال: الأول: أنّ المريج: المختلط.

الثاني: المختلف.

الثالث: في أمر ضلالة.

الرابع: الملتبس.

كما قال تعالى: إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ [الذاريات: 8، 9].

---

الخامس: المُنكر.

وذكر ابنُ جرير (٢١/ ٤٠٨) أن هذه الأقوال متقاربة المعاني بدلالة اللغة، فقال معللًا: «لأن الشـــيء المُختلف مُلتبسٌ معناه مشكل، وإذا كان كذلك كان منكرًا؛ لأنّ المعروف واضح بيّن، وإذا كان غير معروف كان لاشك ضلالة؛ لأن الهدى بيّن لا لبس فيه».

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٣٤) على القول الأول الذي قاله ابن عباس، وابن زيد، فقال: «أي: بعضهم يقول: ساحر.

وبعضهم يقول: كاهن.

وبعضهم يقول: شاعر.

إلى غير ذلك من تخليطهم، وكذلك عادت فكرةُ كلِّ واحد منهم مختلطة في نفسها».

وذكر قولًا آخر بأن المريج: المضطرب، وعلَّق عليه بقوله: «وهو قريب من الأول».

# سُورةُ ق

## الآيات (6–11)

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11)

## غريب الكلمات:

فُرُوجٍ: أي: صُدوعٍ وفُتوقٍ وشُقوقٍ، وأصلُ (فرج): يدُلُّ على تَفتُّحٍ في الشَّيءِ.

رَوَاسِيَ: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُه: يدُلُّ على ثَباتٍ.

بَهِيجٍ: أي: حَسَنٍ عَجيبٍ، وأصلُ (بهج): يدُلُّ على السُّرورِ والنُّضْرةِ.

تَبْصِرَةً: أي: تَبْصيرًا وتِبيانًا، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ.

وَذِكْرَى: أي: مَوعِظةً وتَذكِرةً، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ.

مُنِيبٍ: أي: رَجَّاعٍ تائبٍ، ومُتذَلِّلٍ خاشِعٍ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادٍ ورُجوعٍ.

الْحَصِيدِ: أي: الزَّرعِ المحصودِ مِن البُرِّ والشَّعيرِ وسائِرِ أنواعِ الحُبوبِ، وأصلُ (حصد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ.

بَاسِقَاتٍ: أي: طَويلاتٍ، وأصلُ (بسق): يدُلُّ على ارتفاعِ الشَّيءِ وعُلُوِّه.

طَلْعٌ: الطَّلعُ: أوَّلُ ما يَخرُجُ مِن ثَمَرِ النَّخلِ، وأصلُ (طلع): يدُلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ.

نَضِيدٌ: أي: مُصَفَّفٌ بَعضُه فَوقَ بَعضٍ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ في اتِّساقٍ وجَمْعٍ.

## تفسير الآيات:

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6).

أي: أفلمْ يَنظُرْ هؤلاء المكَذِّبونَ بقُدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتَى إلى السَّماءِ الَّتي رفَعَها اللهُ فوقَهم، فيَتأمَّلوا كيفيَّةَ بُنيانِنا العَظيمِ لها وتَزيينِنا لها بالنُّجومِ، وأنَّه ليس بها صُدوعٌ ولا تَشقُّقاتٌ، بل هي مَبنيَّةٌ بإحكامٍ بلا عُيوبٍ؟! فالَّذي قدَر على فِعلِ ذلك لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه![191]

كما قال تعالَى: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ [الملك: 3].

وقال تعالَى: وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا [النبأ: 12].

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7).

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا.

أي: والأرضَ بَسَطْنا سَطْحَها.

كما قال تعالَى: وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ [الرعد: 3].

(191) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٥) أنّ النقّاش حكى أن هذه الآية تُعطي أن السماء مستديرة، وانتقده، فقال: «وليس الأمر كما حُكي، إذا تُدُبّر اللفظ وما يقتضي».

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ.

أي: وجعَلْنا فيها جِبالًا راسيةً تُثبِّتُها، فلا تَضطرِبُ الأرضُ ولا تَميدُ.

كما قال تعالَى: وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا [الرعد: 3].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ [لقمان: 10].

وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ مِن كُلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الزُّروعِ والنَّباتِ والثِّمارِ التي تَسُرُّ النَّاظِرينَ؛ مِن حُسْنِها.

قال تعالَى: وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ [الرعد: 3].

وقال عزَّ وجلَّ: فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [لقمان: 10].

تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8).

أي: فعَلْنا ذلك مِن أجْلِ أنْ يُبصِرَ ويَتذَكَّرَ كُلُّ عَبدٍ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالَى، مُقبِلٍ على طاعتِه، فيَستَدِلَّ بالنَّظَرِ إليها والتَّفكُّرِ فيها على كَمالِ قُدرتِه على البَعثِ وغَيرِه، وإحاطتِه بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ.

وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9).

أي: ونزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً كثيرَ الخَيرِ والنَّفعِ، فأنبَتْنا بسَبَبِه بَساتينَ كثيرةَ الأشجارِ، وأنبَتْنا به أنواعَ الحُبوبِ التي تُحصَدُ؛ كالبُرِّ والذُّرَةِ، والشَّعيرِ والأَرُزِّ.[192]

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (10).

وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ.

أي: وأنبَتْنا بماءِ المطَرِ النَّخلَ طَويلاتٍ عالياتٍ.

لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ.

أي: للنَّخلِ الطِّوالِ طَلعٌ -وهو أوَّلُ ما يَظهَرُ مِن ثَمَرِه، وهو في غِلافِ العُنقودِ- مُتراكِبٌ مَصفوفٌ بَعضُه فوقَ بَعضٍ.

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (11).

رِزْقًا لِلْعِبَادِ.

---

(192) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٥ بتصرف): «قوله تعالى: ﴿ماء مباركا﴾ قيل: يعني: جميع المطر، كله يتصف بالبركة، وإن ضرّ بعضه أحيانًا ففيه مع ذلك الضر الخاص البركة العامة.
وقال بعض المفسرين: ﴿ماء مباركًا﴾ يريد به: ماء مخصوصًا خالصًا للبركة، ينزله الله كل سنة، وليس كل المطر يتصف بذلك».

أي: أنزَلْنا المطَرَ، وأنبَتْنا به الجنَّاتِ والحُبوبَ والنَّخيلَ؛ رِزقًا للنَّاسِ مُؤمِنِهم وكافِرِهم.

وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا.

أي: وأحيَيْنا بماءِ المطَرِ بَلدةً مُجدِبةً لا زَرْعَ فيها ولا نَبْتَ.

كَذَلِكَ الْخُرُوجُ.

أي: كما أحْيَينا الأرضَ بعدَ مَوتِها كذلك نُخرِجُكم يومَ القِيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِكم.

كما قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [فصلت: 39].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ،[193] ليس مِنَ الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القِيامةِ)).[194]

(193) البَقْل: هو كلُّ نباتٍ اخضرَّتْ به الأرضُ.
ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (5/ 48).
(194) رواه البخاريُّ (4935) واللفظ له، ومسلمٌ (2955).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((يَصْعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مَطرًا كأنَّه الطَّلُّ –أو الظِّلُّ– فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى فإذا هم قِيامٌ يَنظرونَ)).[195]

(195) رواه مسلم (2940).

# سُورةُ ق

## الآيات (12–15)

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13)
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ
هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

## غريب الكلمات:

الرَّسِّ: الرَّسُّ: كُلُّ مَحفورٍ؛ مِثلُ البِئرِ، والقَبرِ، ونَحوِ ذلك. قيل: هي بِئرٌ كانوا عليها نُزولًا، وقيل: قريةٌ مِن قرَى اليَمامةِ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (رسس): يدُلُّ على ثَباتٍ.

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ: أي: قَومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، والأَيْكَةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتَمِعُ، وأصلُ (أيك): يدُلُّ على اجتِماعِ شَجَرٍ.

أَفَعَيِينَا: أي: أفعَجَزْنا، يُقالُ لكُلِّ مَن عَجَز عن شَيءٍ: عَيِيَ به: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِه، ولم يَقدِرْ على مَعرِفتِه وتَحصيلِه.

لَبْسٍ: أي: شَكٍّ وحَيرةٍ، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ.

## تفسير الآيات:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12).

أي: كذَّبتْ قبلَ مُشركي قُريشٍ -الَّذين كذَّبوا مُحمَّدًا- قومُ نوحٍ الَّذين كَذَّبوا نُوحًا، وأصحابُ الرَّسِّ،(196) وثمودُ الَّذين كذَّبوا رَسولَهم صالِحًا.

وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13).

أي: وكذَّبتْ قبلَ مُشرِكي قُريشٍ عادٌ الَّذين كذَّبوا هُودًا، وفِرعَونُ الَّذي كذَّب موسَى، وقَومُ لُوطٍ الَّذين كذَّبوا لُوطًا.

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14).

وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ.

أي: وكذَّبَ قبلَ مُشرِكي قُريشٍ أصحابُ الشَّجرِ المُلتفِّ المُجتمِعِ، فكذَّبوا رَسولَهم شُعَيبًا، وكذَّب قَومُ المَلِكِ تُبَّعٍ.

قال الله تعالى: أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ [الدخان: 37].

---

(196) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٧) أن كعب الأحبار قال: أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود.

وانتقده مستندًا للتاريخ، فقال: «وهذا ضعيف؛ لأن أصحاب الأخدود لم يُكذِّبوا نبيًّا، إنما هو مَلك أحرق قومًا».

وعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: (كان تُبَّعٌ رجُلًا صالحًا، ألَا ترى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذمَّ قومَه، ولم يَذُمَّه؟).(197)

كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ.

أي: كُلُّ أولئك الأُمَمِ الماضيةِ كذَّبوا الرُّسُلَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى إليهم، فوَجَب وثَبَت عليهم عَذابُ اللهِ، الَّذي توعَّدَهم به على كُفرِهم به، وتكذيبِهم رُسُلَه.

كما قال تعالى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [الحج: 42 - 44].

وقال سُبحانَه: وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا [الفرقان: 37 - 39].

وقال اللهُ تبارك وتعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ [ص: 12 - 14].

---

(197) أخرجه عبد الرزَّاق في ((تفسيره)) (2819)، ومن طريقه الحاكم في ((المستدرك)) (488/2) واللَّفظُ له.
قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخينِ).
ووافقه الذهبي، وقال الألباني: في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (549/5): (وهو كما قالا)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)) (37/ 520): (رجالُه ثقاتٌ رجالُ الشَّيخينِ).

## أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15).

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ.

أي: أفعَجَزْنا عن ابتِداءِ الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ، فلم نكُنْ عالِمينَ بما نَصنَعُ فيه، ولا قادِرينَ عليه؟!

كما قال الله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم: 27].

وقال سُبحانَه: أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: 77 – 79].

وقال عزَّ وجلَّ: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الأحقاف: 33].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((قال اللهُ: كذَّبَني ابنُ آدَمَ، ولم يكُنْ له ذلك، يقولُ: لن يُعيدَني كما بدأني! وليس أوَّلُ الخَلقِ بأهوَنَ علَيَّ مِن إعادتِه!)).[198]

(198) رواه البخاري (4974).

بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فلم نَعْيَ بالخَلقِ الأوَّلِ، ولا هم يَشُكُّون في ذلك، وإنَّما هم في شَكٍّ وتردُّدٍ وحَيرةٍ مِن قُدرةِ اللهِ على البَعثِ؛ فالتَبَس عليهم إعادةُ اللهِ الأمواتَ خَلقًا جَديدًا، مع أنَّه لا محلَّ للَّبسِ فيه؛ فالإعادةُ أهوَنُ مِنَ الابتداءِ!

كما قال الله سبحانه وتعالى: وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [الرعد: 5].

وقال سُبحانه وتعالى: وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ [السجدة: 10، 11].

وقال عزَّ وجلَّ: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [سبأ: 7].

# سُورَةُ ق

## الآيات (16–22)

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ
يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ
عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ
مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

## غريب الكلمات:

تُوَسْوِسُ: أي: تُلْقي وتُحَدِّثُ، والوَسْوَسةُ: الخَطرةُ الرَّديئةُ وحديثُ النَّفْسِ، والصَّوتُ الخفيُّ، وبه سُمِّيَ صَوتُ الحلْيِ وَسْواسًا، وأصلُ (وسوس): يدُلُّ على صَوتٍ غَيرِ رَفيعٍ.

حَبْلِ الْوَرِيدِ: الحَبلُ هو الوَريدُ؛ فهو مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى نَفْسِه لاختِلافِ اللَّفظَينِ، وهو عِرقٌ في باطِنِ العُنُقِ مُعَلَّقٌ بالقَلبِ.

قَعِيدٌ: أي: قاعِدٌ رَاصِدٌ مُلازِمٌ لا يَبرَحُ.

رَقِيبٌ: أي: مُراقِبٌ لأعمالِه، حافِظٌ لها، شاهِدٌ عليها، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ.

عَتِيدٌ: أي: حاضِرٌ لا يَغيبُ، مُعَدٌّ للحِفظِ والشَّهادةِ، وأصلُ (عتد): يدُلُّ على حُضورٍ وقُربٍ.

سَكْرَةُ الْمَوْتِ: أي: غَمْرَتُه وشِدَّتُه الَّتي تَغشَى الإنسانَ، وتَغلِبُ على عَقلِه، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ.

تَحِيدُ: أي: تَفِرُّ منه، وتَميلُ عنه، وأصلُ (حيد): يدُلُّ على مَيلٍ وعُدولٍ عن طَريقِ الاستِواءِ.

الصُّورِ: أي: القَرنِ يَنفُخُ فيه إسرافيلُ.

**حَدِيدٌ**: أي: نافِذٌ حادٌّ قويٌّ، وحِدَّةُ البَصَرِ: قُوَّةُ نَفاذِه في المَرَئِيِّ، وأصلُ (حدد): يدُلُّ على مَنعٍ، وسُمِّيَ الحديدُ حَديدًا؛ لامتناعِه وصلابَتِه وشِدَّتِه.

## تفسير الآيات:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16).

**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ.**

أي: ولقد خَلَقْنا كلَّ إنسانٍ ونحنُ نعلَمُ ما تُحدِّثُه به نفْسُه سِرًّا، فلا يخفَى علينا ما يَختَلِجُ في قَلْبِه.

قال تعالى: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [طه: 7].

وقال سُبحانَه: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ [غافر: 19].

**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.**

أي: ونحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ وَريدِه الَّذي في عُنُقِه.(199)

---

(199) رجَّح ابنُ تيمية (٦/ ٨٨ - ٩٢) -مستندًا إلى السياق- أنّ المراد بالقُرْب: قُربه إليه بالملائكة، فقال: «وسياق الآيتين يدل على أن المراد: الملائكة؛ فإنه قال: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾، فقيّد القُرب بهذا الزمان وهو زمان تلقّي المتلقيين قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال، وهما المَلَكان الحافظان اللذان يكتبان كما قال: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾.

ومعلوم أنه لو كان المراد قُرب ذات الرّبّ لم يختص ذلك بهذه الحال، ولم يكن لذِكْر القعيدين والرقيب والعتيد معنًى مناسب».

وبنحوه قال ابنُ كثير (١٣/ ١٨٥).

وذكر ابنُ تيمية أن هذا هو المعروف عن المفسّرين المتقدمين من السلف، ووجَّه تفسير القُرب بالعلم بقوله: «وهؤلاء كلّهم مقصودهم أنه ليس المراد أنّ ذات الباري -جلّ وعلا- قريبة من وريد العبد ومن الميت، ولما ظنّوا أن المراد قُربه وحده دون قُرب الملائكة فسّروا ذلك بالعلم والقدرة كما في لفظ المعية».

وبنحوه قال ابنُ كثير (١٣/ ١٨٥).

كما قال تعالى: وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ [الواقعة: 85].

وقال سُبحانَه: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا [المجادلة: 7].

---

وانتقد ابن تيمية (٦/ ٩٠ – ٩١) هذا المعنى مستندًا للسياق، والدلالة العقلية، فقال: «ولا حاجة إلى هذا؛ فإن المراد بقوله: ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ أي: بملائكتنا في الآيتين، وهذا بخلاف لفظ المعية؛ فإنه لم يقل: ونحن معه، بل جعل نفسه هو الذي مع العباد، وأخبر أنه ينبّئهم يوم القيامة بما عملوا، وهو نفسه الذي خلق السموات والأرض، وهو نفسه الذي استوى على العرش، فلا يجعل لفظ مثل لفظ مع تفريق القرآن بينهما...

وقوله: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ لا يجوز أن يُراد به مجرد العلم؛ فإنّ مَن كان بالشيء أعلم من غيره لا يُقال: إنه أقرب إليه مِن غيره لمجرد علمه به، ولا لمجرد قدرته عليه.

ثم إنه؟ عالم بما يُسَرّ من القول وما يُجهر به وعالم بأعماله؛ فلا معنى لتخصيص حبل الوريد بمعنى أنه أقرب إلى العبد منه؛ فإنّ حبل الوريد قريب إلى القلب ليس قريبًا إلى قوله الظاهر، وهو يعلم ظاهر الإنسان وباطنه...

ومما يدل على أنّ القُرب ليس المراد به العلم أنه قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ فأخبر أنه يعلم ما توسوس به نفسه، ثم قال: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ فأثبت العلم، وأثبت القُرب، وجعلهما شيئين، فلا يُجعل أحدهما هو الآخر.

وقيّد القرب بقوله: ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾».

واستدرك ابنُ القيم (٣/ ١٢ – ١٣) ما رجّحه ابنُ تيمية مستندًا لظاهر الآية، والسنة، فقال: «قلتُ: أوّل الآية يأبى ذلك؛ فإنه قال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾...

وفي صحيح مسلم من حديث حُذيفة بن أسيد؟ في تخليق النطفة: «فيقول المَلَك الذي يخلقه: يا ربّ، ذكر أم أنثى؟ أسوي أم غير سوي؟ فيقضي ربّك ما شاء، ويكتب المَلَك».

فهو سبحانه الخالق وحده».

ثم علق بقوله: «ولا يُنافي ذلك استعمال الملائكة».

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٨) أن ﴿الإنسان﴾ اسم جنس، ثم قال: «وقال بعض المفسرين: الإنسان هنا: آدم – عليه السلام –».

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا غزا رسولُ اللهِ – ﷺ – خَيبَرَ أشرَفَ النَّاسُ على وادٍ، فرَفَعوا أصواتَهم بالتَّكبيرِ: اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ارْبَعوا[200] على أنفُسِكم؛ إنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ، ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعُونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم)).[201]

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17).

أي: نحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ في الوَقتِ الَّذي يَتلَقَّى فيه المَلَكانِ جميعَ ما يَصدُرُ منه مِن أقوالٍ وأعمالٍ، فيُحصيانِها عليه: أحَدُهما ثابِتٌ عن يمينِه، والآخَرُ ثابتٌ عن شِمالِه، لا يُفارِقانِه.[202]

---

(200) ارْبَعُوا على أنفُسِكم: أي: ارْفُقوا بها، وأمسِكوا عن الجَهرِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1597/4).

(201) رواه البخاري (4205) واللفظ له، ومسلم (2704).

(202) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٩) أن الحسن قال: الحفظة: أربعة؛ اثنان بالنهار، واثنان بالليل.
وعلَّق عليه بقوله: «ويؤيد ذلك الحديث: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار» الحديث بكماله».
ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٩) أنّ المفسرين قالوا: العامل في: ﴿إذ﴾ هو ﴿أقرب﴾، ثم ساق احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل عندي أن يكون العامل فيه فعلًا مضمرًا تقديره: اذكر إذ يتلقى المتلقيان».
وعلَّق عليه بقوله: «ويحسن هذا المعنى؛ لأنه أخبر خبرًا مجرّدًا بالخَلْق، والعلم بخطرات الأنفس، والقُرب بالقدرة، والمِلك، فلما تمّ الإخبار أخبر بذِكر الأحوال التي تصدّق هذا الخبر، وتبيّن وروده عند السامع، فمنها: ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾، ومنها: مجيء سكرة الموت، ومنها: النّفخ في الصور، ومنها: مجيء كل نفس».
كان الحسن البصري يعجبه أن يُنَظِّف عَنْفَقَته
العَنفَقَة: الشعر الذي في الشَّفَة السُّفلى.
النهاية (عَنْفَق).
تفسير الثعلبي ٩/ ٩٩، وتفسير البغوي ٧/ ٣٥٩
ذكر ابن عطية (٨/ ٤١) أنّ الحسن كان يفعل ذلك لأنه قال هو والضَّحّاك: إنّ مقعد المَلَكين تحت الشعر.

مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18).

أي: ما يَتكلَّمُ الإنسانُ بقَولٍ إلَّا وعِندَه مَلَكٌ حافِظٌ يُراقِبُ كَلامَه لِيَكتُبَه، حاضِرٌ لا يُفارِقُه.(203)

كما قال الله تبارك وتعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الانفطار: 10 – 12].

وعن عَلْقَمةَ بنِ وقَّاصٍ اللَّيثيِّ، عن بلالِ بنِ الحارِثِ المُزَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ الرَّجُلَ لَيتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أنْ تَبلُغَ ما بَلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ له بها رِضوانَه إلى يومِ القيامةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن سَخَطِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أن

(203) اختُلف هل يكتب الملكان كل كلام أم لا؟ وذكر ابنُ عطية (٨/ ٤٠) أن القول بكتابتهما لكل كلام هو ظاهر الآية، ورجَّحه (٨/ ٤١) مستندًا إلى ظاهر الآية، فقال: «والأول أصوب».

وكذا رجَّحه ابنُ تيمية (٦/ ٩٤) مســتندًا إلى اللغة، فقال: «وظاهر القرآن يدل على أنهما يكتبان الجميع؛ فإنه قال: ﴿ما يلفظ من قول﴾ نكرة في سياق الشرط مؤكدة بحرف ﴿من﴾؛ فهذا يعمّ كل قوله».

وبنحوه قال ابنُ كثير (١٣/ ١٨٦).

ذكر ابن عطية (٨/ ٤١) أنه روي أنّ رجلًا قال لجمله: حَلْ.

فقال مَلك اليمين: لا أكتبها.

وقال مَلك الشمال: لا أكتبها.

فأوحى الله إلى مَلك الشمال: أن اكتب ما ترك ملك اليمين.

ثم قال: «وروي نحوه عن هشام الحِمصيّ».

ثم علَّق بقوله: «وهذه اللفظة إذا اعتُبِرت فهي بحسب مشيئته ببعيره، فإن كان في طاعة فإنّ» حل «حسنة، وإن كان في معصية فهي سيئة، والمتوسط بين هذين عسِر الوجود، ولابد أن يقترن بكل أحوال المرء قرائن تخلصها للخير أو لخلافه».

تَبلُغَ ما بلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ بها عليه سَخَطَه إلى يومِ القيامةِ!))، فكان عَلْقمةُ يقولُ: (كم مِن كَلامٍ قد مَنَعَنيه حديثُ بلالِ بنِ الحارِثِ!).[204]

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19).

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ.

أي: وجاءتْ شِدَّةُ الموتِ وغَمْرتُه الَّتي تَغشَى الإنسانَ،[205] بما يكونُ بعدَ الموتِ مِن ثَوابٍ وعِقابٍ، وسَعادةٍ وشَقاوةٍ، فيَظهَرُ عندَ الموتِ صِدقُ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ مِن ذلك.

---

(204) أخرجه الترمذي (2319)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) كما في ((تحفة الأشراف)) للمِزِّي (104/2)، وابن ماجه (3969)، وأحمد (15852) واللَّفظُ له.

قال الترمذي، وابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (210): (حسَنٌ صحيحٌ).

وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (280)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (106/1)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (3969)، وصحَّحه لغيرِه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (180/25).

(205) اختُلف في المخاطب بهذه الآيات على أقوال: الأول: أنه النبي.

الثاني: أنه الكافر.

الثالث: البر والفاجر.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٤٣٣) -مستندًا إلى السياق- القول الأخير الذي قاله الحسين بن عبد الله، فقال: «لأنّ الله أتبع هذه الآيات قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾، والإنسان في هذا الموضع بمعنى: الناس كلهم، غير مخصوص منهم بعض دون بعض.

فمعلوم إذا كان ذلك كذلك أنّ معنى قوله: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾: وجاءتك -أيها الإنسان- سكرة الموت بالحق، ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾».

ذكر ابنُ عطية (٨/ ٤١) أن قوله: ﴿وجاءت﴾ عطف على قوله: ﴿إذ يتلقى﴾، فالتقدير: وإذ تجيء سكرة الموت، وأنه جعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقًا وتبيينًا للأمر، ثم علّق بقوله: «وهذا أحثّ على الاستعداد واستشعار القرب، وهذه طريقة العرب في ذلك، وتبيين هذا في قوله: ﴿ونفخ في الصور﴾، ﴿وجاءت كل نفس﴾ فإنها صيرورة بمعنى الاستقبال».

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، ((أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – حينَ حضَرَتْه الوَفاةُ جَعَل يُدخِلُ يَدَيه في الماءِ، فيَمسَحُ بهما وَجْهَه، يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، إنَّ لِلْمَوتِ سَكَراتٍ)).[206]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إنْ كان مِن أهلِ الجنَّةِ فمِن أهلِ الجنَّةِ، وإنْ كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقال: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ)).[207]

ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ.

أي: ذلك الموتُ الَّذي جاءَتْك سَكْرتُه بالحَقِّ هو ما كُنتَ تَميلُ عنه وتَهرُبُ منه –أيُّها الإنسانُ– وقد أدركَك الآنَ!

كما قال الله تعالى: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ [الجمعة: 8].

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20).

أي: ونَفَخ المَلَكُ في القَرنِ لِبَعثِ النَّاسِ يومَ القيامةِ الَّذي توعَّد اللهُ الكافِرينَ والظَّالِمينَ فيه بالعَذابِ.

---

(206) رواه البخاري (4449).

(207) رواه البخاري (1379)، ومسلم (2866) واللَّفظُ له.

قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ [الزمر: 68].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبِيِّ – ﷺ – فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنفَخُ فيه)).[208]

## وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21).

أي: وجاءت كلُّ نفْسٍ يومَ القيامةِ ومعها سائقٌ مِنَ الملائِكةِ يَسوقُها إلى اللهِ تعالى، وشَهيدٌ مِنَ الملائكةِ يَشهَدُ عليها بما عَمِلَتْه في الدُّنيا.[209]

---

(208) أخرجه أبو داودَ (4742)، والترمذيُّ (2430)، والنَّسائيُّ (11456) واللَّفظُ لهما، وأحمدُ (6507) باختلافٍ يسيرٍ. حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (550/2)، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (550/2)، وذكر ثبوتَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (308/5)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (9/10)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (2430).

(209) اختُلف في المراد بالسائق والشهيد على أقوال: الأول: أنهما ملكان.

الثاني: أن السائق ملَك، والشهيد جوارح الإنسان.

الثالث: أن السائق ملك، والشهيد العمل.

ورجَّح ابن كثير (١٣/ ١٩٠) –مستندًا إلى ظاهر الآية– القول الأول الذي قاله عثمان، ومجاهد، وابن زيد، ومقاتل، فقال: «هذا هو الظاهر من الآية».

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٤٣ – ٤٤) قولًا آخر وهو أن «سائق» اسم جنس، و«شهيد» كذلك، فالساقة للناس ملائكة يُوكّلون بذلك، والشهداء: الحفظة في الدنيا وكل ما يشهد.

وعلّق عليه بقوله: «ويقوى في ﴿شهيد﴾ اسم الجنس، فتشهد بالخير الملائكة والبقاع، ومنه قول النبي – ﷺ –: «لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة».

وكذلك يشهد بالشر الملائكة، والبقاع، والجوارح.

كما قال تعالى: إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا [مريم: 93 – 95].

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22).

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا.

أي: لقد كنتَ –أيُّها الإنسانُ–(210) في الدُّنيا في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ، فلمْ تستَعِدَّ له.

فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ.

---

ونقل عن ابن مسلم أنه قال: السائق: شيطان.

وانتقده بقوله:» وهو ضعيف".

(210) اختُلف في المخاطب بهذه الآية على أقوال: الأول: أنه النبي.

الثاني: أنه الكافر.

الثالث: البرّ والفاجر.

وعلَّق ابنُ كثير (٢١/ ٤٣٣) على القول الأخير الذي قاله الحسين بن عبد الله، فقال: «لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام».

ورجَّحه مستندًا إلى السياق، والنظائر، فقال: «الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ يعني: من هذا اليوم، ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي: قوي؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرًا، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك.

قال الله تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون﴾ [السجدة: ١٢]».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٤٤).

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٤٤) على القول الأول الذي قاله ابن عباس، وسفيان، ومجاهد، بقوله: «وهذا كما تقول: فلان حديد الذهن والفؤاد.

ونحوه».

أي: فأزَلْنا عنك الغِطاءَ، ورَفَعْنا عنك الحِجابَ يومَ القيامةِ؛ فظَهَرت لك حقائِقُ الآخِرةِ.

فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.

أي: فبَصَرُك يومَ القيامةِ في غايةِ الحِدَّةِ والقُوَّةِ والنُّفوذِ، فترَى به ما كُنتَ غافِلًا عنه في الدُّنيا.

كما قال الله تعالى: أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [مريم: 38].

وقال سُبحانَه: وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ [السجدة: 12].

وقال عزَّ وجلَّ: وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ [الأنبياء: 97].

# سُورَةُ ق

## الآيات (23–30)

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا
مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ
بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ
امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

## غريب الكلمات:

قَرِينُهُ: أي: المَلَكُ المُصاحِبُ له، وقيل: الشَّيطانُ المقرونُ به، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

مُرِيبٍ: أي: واقِعٍ في الرِّيبةِ والشَّكِّ، ومُوقِعٍ غَيرَه كذلك في الشَّكِّ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظَنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ.

أَطْغَيْتُهُ: أي: أَضلَلتُه، وأغوَيتُه، وأوقَعتُه في الطُّغيانِ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ.

تَخْتَصِمُوا: أي: تَتنازَعوا، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ.

## تفسير الآيات:

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (23).

أي: وقال المَلَكُ المَقْرونُ بالإنسانِ في الدُّنيا لِكِتابةِ أعمالِه: هذا هو الَّذي وُكِّلتُ به قد أحضَرْتُه، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيْتُه عليه مُعَدٌّ مُحضَرٌ، بلا زِيادةٍ ولا نُقْصانٍ.

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24).

أي: فيقول اللهُ تعالى: اطْرَحا في نارِ جَهنَّمَ كُلَّ كثيرِ الكُفرِ باللهِ وبدِينِه،[211] وآياتِه ونِعَمِه؛ شديدِ العِنادِ للحَقِّ.

---

(211) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٤٥ – ٤٦) أنه اختُلف لمن يقال: ﴿ألقيا في جهنم﴾؟ على أقوال: الأول: أنه قولٌ لمَلَكين من ملائكة العذاب.

الثاني: أنه قول للسّائق والشهيد.

ونسبه لعبد الرحمن بن زيد.

الثالث: أن المأمور بإلقاء الكافر في النار اثنان.

وعلَّق على القول الثاني والثالث بقوله: «وعلى هذين القولين لا نظر في قوله تعالى: ﴿ألقيا﴾».

الرابع: أنه قول للقرين: إمّا السائق، وإما الذي هو من الزبانية.

وبيّن أنه اختلف أهلُ هذه المقالة في معنى قوله: ﴿ألقيا﴾ وهو مخاطبة لواحد على أقوال: الأول: أن المعنى: ألْقِ ألق، فإنما أراد تثنية الأمر مبالغة وتأكيدًا، فردّ التثنية إلى الضمير اختصارًا.

ونسبه للمبرد.

الثاني: أن المراد: ألقيَن، فعوّض من النون ألف كما نعوض من التنوين.

وانتقده ابنُ كثير (١٣/ ١٩١) مستندًا للغة، والظاهر، فقال: «وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدّى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير».

## مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25).

### مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ.

أي: كَثيرِ المَنعِ لكلِّ خَيرٍ.[212]

### مُعْتَدٍ مُرِيبٍ.

أي: مُعْتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالِمٍ للنَّاسِ، شاكٍّ في وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه، ووَعْدِه ووَعيدِه، ومُشكِّكٌ لِغَيرِه.

---

الثالث –وهو قول مقاتل–: أن هذا جرى على عادة العرب، وذلك أنها كان الغالب عندها أن تترافق في الأسفار ونحوها ثلاثة، فكل واحد منهم يخاطب اثنين، فكثر ذلك في أشعارها وكلامها حتى صار عُرفًا في المخاطبة، فاستُعمل في الواحد، ومن هذا قولهم في الأشعار: خليليّ، وصاحبيّ، وقِفا نبكِ، ونحوه، ونسبه لجماعة من أهل العلم بكلام العرب، وعلَّق عليه بقوله: «وقد جرى المحدّثون على هذا الرّسم، فيقول الواحد: حدّثنا، وإن كان سمع وحده، ونظير هذه الآية في هذا القول قول الحجاج: يا حرسيّ، اضربا عنقه.

وهو دليل على عادة العرب».

وبنحوه قال ابنُ القيم (٣/ ٢٣).

(212) عن قتادة بن دعامة –من طريق سعيد– في قوله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾، قال:

الزّكاة المفروضة

أخرجه ابن جرير ٢١/ ٤٣٨.

وعزاه السيوطي إلى عَبد بن حُميد، وابن المنذر.

انتقد ابنُ عطية (٨/ ٤٧) القول بأنه الزّكاة المفروضة مستندًا لدلالة العموم، فقال: «وهذا التخصيص ضعيف».

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٤٣٩) عدم التخصيص مستندًا إلى دلالة العموم، وأن المراد بالخير: كلّ حقٍّ وجب لله أو لآدمي في ماله، وأنه في هذا الموضع هو المال، فقال: «لأنّ الله –تعالى ذِكره– عمّ بقوله: ﴿مناع للخير﴾ الخبر عنه أنه يمنع الخير، ولم يخصص منه شيئًا دون شيء، فذلك على كل خير يمكن منعه طالبه».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٤٧)، فقال: «﴿مناع للخير﴾ لفظ عام للمال، والكلام الحسن، والتعاون على الأشياء».

## الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (26).

**الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ.**

أي: الَّذي أشرَكَ باللهِ، فعَبَد معه معبودًا آخرَ مِن خَلْقِه.(213)

كما قال تعالى: أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا [الفرقان: 43].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((تَعِسَ(214) عبدُ الدِّينارِ والدِّرهَمِ، والقَطيفةِ والخَميصةِ؛(215) إن أُعطِيَ رَضِيَ، وإنْ لم يُعطَ لم يَرْضَ)).(216)

**فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ.**

---

(213) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٤٧ – ٤٨) أن قوله تعالى: ﴿الذي جعل﴾ يحتمل ثلاثة احتمالات: الأول: أن يكون ﴿الذي﴾ بدلًا من ﴿كفار﴾.

الثاني: أن يكون صفة له من حيث تخصص ﴿كفار﴾ بالأوصاف المذكورة، فجاز وصفه بعد المعرفة.

الثالث: أن يكون ﴿الذي﴾ ابتداء، وخبره قوله: ﴿فألقياه﴾، ودخلت الفاء في قوله: ﴿فألقياه﴾ للإبهام الذي في ﴿الذي﴾، فحصل الشبه بالشرط.

وانتقده بقوله: «وفي هذا نظر».

ثم قال مستندًا للسياق: «ويقوى عندي أن يكون ﴿الذي﴾ ابتداء، ويتضمن القول حينئذ بني آدم والشياطين المُغوين لهم في الدنيا، ولذلك تحرّك القرين الشيطان المغوي في الدنيا، فرام أن يُبرِّئ نفسه ويخلّصها بقوله لربه: ﴿ربنا ما أطغيته﴾».

(214) تَعِسَ: أي: خاب وخَسِرَ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3228/8).

(215) الخَميصةِ: هي ثَوبُ خَزٍّ أو صُوفٍ مُعَلَّمٌ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3228/8).

(216) رواه البخاري (6435).

أي: يَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ: فألْقِيَا ذلك المتَّصِفَ بتلك الصِّفاتِ في عَذابِ النَّارِ الشَّديدِ.

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27).

أي: قال الشَّيطانُ مُتبَرِّئًا مِن ذلك الكافِرِ الَّذي اقتَرَن به في الدُّنيا: رَبَّنا ما أوقَعْتُه فيما كان فيه مِن طُغيانٍ، ولا أضلَلْتُه ولا أغوَيتُه؛ فإنَّه لا سُلطانَ لي عليه، ولا حُجَّةَ ولا بُرهانَ، ولكِنْ كان بَعيدًا عن الحَقِّ باختيارِه، مُبادِرًا إلى الضَّلالِ بطَبْعِه.[217]

(217) اختُلف في القرين على قولين: الأول: أنه مَلَك.

الثاني: أنه شيطانه.

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٤٥) قولين آخرين: الأول: أنّه قرينه من زبانية جهنم، أي قال: هذا العذاب الذي لهذا الإنسان الكافر حاضر عتيد.

وعلَّق عليه، بقوله: «ففي هذا تحريض على الكافر، واستعجال به».

الثاني: أنّه عمله قلبًا وجوارحًا.

ورجَّح أنّ القرين اسم جنس، فيشمل ما يصدق عليه، فقال: «ولفظ القرين: اسم جنس، فسائقه قرين، وصاحبه من الزبانية قرين، وكاتب سيئاته في الدنيا قرين، وتحتمله هذه الآية، أي: هذا الذي أحصيته عليه عتيد لدي، وموجب عذابه، ومماشي الإنسان في طريقه قرين».

ثم قال: «والقرين الذي في هذه الآية غير القرين الذي في قوله: ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾؛ إذ المقارنة تكون على أنواع».

وعلَّق ابنُ عطية على القول الأول الذي قاله قتادة، وابن زيد، وابن جُرَيْج، ومقاتل، فقال: «فكأنه قال: هذا الكافر الذي جُعل إلي سَوْقه، فهو لديَّ حاضر».

عن عبد الله بن عباس، في قوله: ﴿قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ﴾، قال: شيطانه.

عن مجاهد بن جبر، في قوله: ﴿وقالَ قَرِينُهُ﴾، قال: الشيطان الذي قُيِّض له.

انتقد ابنُ عطية (٨/ ٤٥) هذا القول الذي قاله ابن عباس، ومجاهد، فقال: «وهذا ضعيف».

ثم قال: «وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله: ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ هو شيطانه في الدنيا ومغويه بلا خلاف».

كما قال تعالى: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ [إبراهيم: 22].

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28).

أي: قال اللهُ تعالى لأولئك المُشرِكينَ وقُرَنائِهم مِنَ الشَّياطينِ: لا تَختَصِموا عندي وقد سبَق أن أقمْتُ عليكم الحُجَّةَ في الدُّنيا بإنزالِ الكُتُبِ، وإرسالِ الرُّسُلِ، وبلَغَكم وعيدي لِمَن كفَرَ بي، وعصاني، وكذَّب رُسُلي؛ فلا نجاةَ لكم مِن جهنَّمَ، ولا فائدةَ في اختِصامِكم!

قال تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [الزمر: 31].

مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29).

مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ.

أي: لا أحدَ يَستطيعُ أن يُغيِّرَ قَولي الَّذي قُلْتُه مِن قَبْلُ بأنِّي سأَملأُ جهنَّمَ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ؛ فالكُفَّارُ في النَّارِ، وأهلُ الإيمانِ في الجِنانِ، وما قضَيتُ به لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ.(218)

---

(218) ذكر ابنُ القيم (٣/ ٢٤) هذا القول، وذكر قولًا آخر أنّ معنى قوله: «﴿ما يبدل القول لدي﴾: ما يُكذب لدي؛ لعلمي بجميع الأمور.

وذكر أنّ المراد بالقول –على هذا القول–: قول المختصمين.

كما قال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [هود: 119].

وقال سُبحانَه: وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [السجدة: 13].

وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

أي: وما أنا بذِي ظُلمٍ لعِبادي؛ فلا أعاقِبُ أحدًا بغيرِ ذَنْبِه، أو أَزيدُ في سَيِّئاتِه، أو أَنقُصُ مِن حَسَناتِه.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

وقال سُبحانَه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [يونس: 44].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت: 46].

---

وبيّن أنه تعالى يكون قد وصف نفسه –على هذا القول– بأمرين: أحدهما: أنّ كمال عِلْمه واطّلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه.

والثاني: أنّ كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده».

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٤٨) على هذا القول بقوله: «فتكون الإشارة –على هذا– إلى كذب الذي قال: ﴿ما أطغيته﴾».

وعلَّق ابنُ القيم على القول الأول بقوله: «فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ مِن تمام قوله: ﴿ما يبدل القول لدي﴾ في المعنى، أي: ما قلتُه ووعدتُ به لا بُدَّ مِن فِعْله، ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه، ولا جور».

ورجَّحه بقوله: «وهذا أصح القولين في الآية».

ولم يذكر مستندًا.

## يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30).

**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ.**

**أي: يومَ نَقولُ لِجهنَّمَ: هل امتَلأتِ كما وَعدْتُ بذلك؟**

**وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ.**

**أي: وتقولُ جهنَّمُ طالِبةً المزيدَ مِن أهلِ الضَّلالِ: هل مِن زيادةٍ مِنَ الجِنِّ والإنسِ تُزادُ إلَيَّ؟!**[219]

---

(219) اختُلف في معنى قوله: ﴿هل من مزيد﴾ على قولين: الأول: أن المعنى: ما من مزيد وإنما يقول الله لها: هل امتلأتِ بعد أن يضع قدمه فيها، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قَطْ قَطْ، من تضايقها؛ فإذا قال لها وقد صارت كذلك: هل امتلأتِ؟ قالت حينئذ: هل من مزيد؟! أي: ما من مزيد؛ لشدة امتلائها.

الثاني: أن المعنى: زدني، بمعنى الاستزادة.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٤٤٦) –مستندًا إلى السنة– القول الثاني الذي قاله أنس، وابن زيد.

وانتقد القول الأول، فقال: «وإنما قلنا ذلك أولى القولين بالصواب لصحة الخبر عن رسول الله – ﷺ –».

وساق حديث أنس وما في معناه، ثم قال (٢١/ ٤٤٩): «ففي قول النبي – ﷺ –: «لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد».

دليل واضح على أن ذلك بمعنى الاستزادة، لا بمعنى النفي؛ لأن قوله: «لا تزال» دليل على اتصال قول بعد قول».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٥٠)، وابنُ تيمية (٦/ ٩٥ – ٩٦)، وابنُ كثير (١٣/ ١٩٣).

وانتقد ابنُ القيم (٣/ ٢٥) القول الأول مستندًا للسنة، فقال: «والحديث الصحيح يرد هذا التأويل [حديث أنس وما في معناه]».

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٤٩) أنّ مَن قال بالقول الأول جعل قول النار: ﴿هل من مزيد﴾ على معنى التقرير ونفي المزيد، أي: هل عندي موضع يزاد فيه شيء، وعلَّق عليه بقوله: «ونحو هذا التأويل قول النبي – ﷺ –: «وهل ترك لنا عقيل منزلًا»».

وأنّ مَن قال بالقول الثاني جعل قولها: ﴿هل من مزيد﴾ على معنى السؤال والرغبة في الزيادة.

وذكر أنّ الرّماني قال: إن المعنى: وتقول خزنتها.

ثم رجَّح أنها القائلة، فقال: «والقول إنها القائلة أظهر».

ولم يذكر مستندًا.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((يُقالُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلأتِ؟ وتقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ فيَضَعُ الرَّبُّ تبارك وتعالى قَدَمَه عليها،(220) فتَقولُ: قَطْ قَطْ))(221).(222)

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله – ﷺ – قال: ((قال اللهُ للجَنَّةِ: إنَّما أنتِ رَحمَتي أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي، وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي، ولكُلِّ واحدةٍ

---

وذكر (٨/ ٤٩ – ٥٠) أنه اختُلف في قول جهنم هل هو حقيقة أو مجاز؟ أي: حالها حال مَن لو نطق لقال كذا وكذا، فيجري هذا مجرى:

شكا إلي جملي طول السُّرى

ثم رجَّح القول بالحقيقة، فقال: «والذي يترجح في قول جهنم: ﴿هل من مزيد﴾ أنها حقيقة».

ولم يذكر مستندًا.

(220) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٠ – ٥١) أن البعض تأول ما جاء في الحديث مِن قوله – ﷺ –: «فيضع رب العالمين فيها قدمه».

أن «القدم» ما قدّم لها من خلْقه، وجعلهم في علمه من ساكنيها، وعلَّق عليه بقوله: «ومنه قول الله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ [يونس: ٢]، فالقدم هنا: ما قُدّم مِن شيء»، ونسب هذا التأويل لابن المبارك، والنضر بن شميل، والأصوليين.

وبيّن أن ما جاء في كتاب مسلم بن الحجاج: «فيضع الجبار فيها رجله»، معناه: الجمع الذي أُعِدّ لها، يقال للجمع الكثير من الناس: «رِجْل» تشبيهًا برِجْل الجراد.

ثم قال (٨/ ٥٢): «وملاك النظر في هذا الحديث: أن الجارحة والتشبيه وما جرى مجراه منتفٍ كل ذلك، فلم يبق إلا إخراج ألفاظ على هذه الوجوه السائغة في كلام العرب».

وما قاله ابن عطيه باطل، والحق إثبات صفه القدم لله تعالى على ما يليق بكماله وعظمته وجلاله، وهو إجماع السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم.

ينظر: الشريعة ٣/ ١١٤٧ – ١١٧٧، والإبانة الكبرى ٣/ ٩١ – ١٣١، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٤٥١ – ٤٨٠.

(221) قَطْ قَطْ: أي: كَفَى كَفَى.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3629/9).

(222) رواه البخاريُّ (4849).

مِنكما مِلْؤُها؛ فأمَّا النَّارُ فلا تمتَلِئُ حتَّى يَضَعَ اللهُ تبارك وتعالى رِجْلَه، تقولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فهُنالك تمتَلِئُ، ويُزوَى بَعضُها إلى بَعضٍ، ولا يَظلِمُ اللهُ مِن خَلْقِه أحَدًا)).[223]

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ - ﷺ -: ((لا تزالُ جَهنَّمُ تقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ وعِزَّتِك، ويُزوَى[224] بَعضُها إلى بَعضٍ)).[225]

(223) رواه البخاريُّ (4850)، ومسلمٌ (2846) واللَّفظُ له.

(224) ويُزوَى: أي: يُضَمُّ ويُجمَعُ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3629/9).

(225) رواه البخاري (6661) واللَّفظُ له، ومسلم (2848).

# سُورةُ ق

## الآيات (31-35)

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35)

## غريب الكلمات:

وَأُزْلِفَتِ: أي: قُرِّبَت وأُدنِيَت، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ.

أَوَّابٍ: أي: كثيرِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالَى بالتَّوبةِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ.

حَفِيظٍ: أي: كثيرِ المحافَظةِ على كلِّ ما يُقرِّبُه إلى الله تعالى، أو: حفيظٍ لِذُنوبِه الَّتي سلفَتْ منه حتَّى يَتوبَ منها ويَستغفِرَ، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ.

مُنِيبٍ: أي: رجَّاعٍ تائبٍ، والنَّوْبُ: رُجوعُ الشَّيءِ مرَّةً بعدَ أُخرَى، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادٍ ورُجوعٍ.

تفسير الآيات:

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31).

أي: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للَّذين اتَّقَوُا اللهَ تعالى بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، إلى مَوضِعٍ غيرِ بَعيدٍ عنهم، فيَرَوْنَها قبْلَ دُخولِها.

كما قال الله تبارك وتعالى: وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ [الشعراء: 90، 91].

وقال سُبحانَه: وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ [التكوير: 13].

وعن أبي هُرَيرةَ وحُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ الله - ﷺ -: ((يَجمَعُ اللهُ تبارك وتعالى النَّاسَ، فيَقومُ المُؤمِنونَ حتَّى تُزلَفَ لهم الجنَّةُ، فيَأتون آدَمَ، فيقولونَ: يا أبانا، استَفتِحْ لنا الجنَّةَ...))

وذكَرَ الحديثَ بطُولِه.[226]

(226) رواه مسلم (195).

## هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32).

أي: هذا الجزاءُ الَّذي وُعِدْتُم به[227] هو لكُلِّ كثيرِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى، فيَرجِعُ مِن مَعصيتِه إلى طاعتِه، ومِنَ الغَفلةِ عنه إلى ذِكرِه، ويَتوبُ إليه مِن ذُنوبِه؛ كثيرِ المحافَظةِ على حُقوقِ اللهِ تعالى،[228] وعَدَمِ التَّعَدِّي على حُدودِه.[229]

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: كنتُ خَلْفَ رَسولِ اللهِ - ﷺ - يومًا، فقال: ((يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُك كَلِماتٍ، احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك)).[230]

---

(227) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٢) أن قوله تعالى: ﴿هذا ما توعدون﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون معناه: يقال لهم في الآخرة عند إزلاف الجنة: هذا هو الذي كنتم توعدون في الدنيا.

الثاني: أن يكون المعنى خطاب لأمة محمد - ﷺ -، أي: هذا هو الذي توعدون به، أيها الناس.

(228) اختُلف في معنى: ﴿حفيظ﴾ على أقوال: الأول: أنه حفظ ذنوبه حتى تاب منها.

الثاني: أنه حفيظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه.

الثالث: المطيع فيما أمر.

الرابع: أنه الحافظ لحق الله بالاعتراف ولنعمه بالشكر.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٤٥٢) العموم، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إنّ الله -تعالى ذكره- وصف هذا التائب الأوّاب بأنه حفيظ، ولم يحصر به على نوع من أنواع الطاعات دون نوع، فالواجب أن يعمّ كما عمَّ -جلَّ ثناؤه-، فيُقال: هو حفيظ لكل ما قرّبه إلى ربه من الفرائض والطاعات، والذنوب التي سلفت منه للتوبة منها والاستغفار».

(229) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٢) أن قوله تعالى: ﴿هذا ما توعدون﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون معناه: يقال لهم في الآخرة عند إزلاف الجنة: هذا هو الذي كنتم توعدون في الدنيا.

الثاني: أن يكون المعنى خطاب لأمة محمد - ﷺ -، أي: هذا هو الذي توعدون به، أيها الناس.

(230) أخرجه الترمذي (2516)، وأحمد (2669)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (5417).

## مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33).

مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ.

أي: مَن خاف اللهَ وتَرَك مَعصِيته في سِرّه وخَلْوَته.

كما قال تعالى: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ [الأنبياء: 49].

وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ.

أي: وجاء يومَ القيامة بقَلبٍ عاكفٍ على محبَّةِ ربّه، وطاعتِه، والخُضوعِ والإخلاصِ له، غيرِ مُلتَفِتٍ إلى ما سِواه.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ [الزمر: 17].

## ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34).

---

صحَّحه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (2516)، وابنُ باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (1/160)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (1/459)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَرَ)) (1/327)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (4/233).

ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ.

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ لِمَن كانت تلك صِفاتُه: ادخُلوا هذه الجَنَّةَ بأمانٍ مِن كُلِّ سُوءٍ ومَكروهٍ، وآفةٍ وشَرٍّ.

كما قال الله تبارك وتعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ [الحجر: 45، 46].

ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ.

أي: ذلك هو اليَومُ الَّذي يَمكُثونَ فيه في الجنَّةِ أبدًا إلى غيرِ نِهايةٍ.

كما قال تعالى: وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ [الزمر: 73].

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35).

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا.

أي: لهم في الجنَّةِ كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم، فمهما طَلَبوا مِن شَيءٍ أُحضِرَ لهم.

كما قال تعالى: وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ [الأنبياء: 102].

وقال سُبحانَه: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [الزخرف: 70، 71].

وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ.

أي: وعِندَنا لهم ثوابٌ زائدٌ على ما يَشاؤون مِمَّا لم يَخطُرْ على قُلوبِهم، وأعظَمُ ذلك وأفضَلُه: النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ الكريمِ.(231)

كما قال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ [يونس: 26].

وقال سُبحانَه: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ [القيامة: 22، 23].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((إذا دَخَل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شَيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألم تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ! فما أُعطُوا شَيئًا أحَبَّ إليهم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)).(232)

---

(231) ذكر ابن عطية (٨/ ٥٣) أن ابن جرير ذكر في تعيين المزيد أحاديث مطولة وأشياء ضعيفة، ثم استدرك بقوله: «لأن الله تعالى يقول: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾ [السجدة: ١٧] وهم يعينونها تكلفًا وتعسفًا».

وقال ابنُ كثير (٧/ ٣٨٥): «فيه غرائب كثيرة».

(232) رواه مسلم (181).

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا جُلوسًا عند رَسولِ اللهِ - ﷺ - إذْ نظَرَ إلى القمَرِ لَيلةَ البَدرِ، فقال: أمَا إنَّكم ستَرَونَ ربَّكم كما تَرَونَ هذا القَمَرَ، لا تُضامُّونَ[233] في رُؤيتِه!)).[234]

---

(233) لا تُضامُّونَ في رُؤيتِه: يُروى بتَشديدِ الميمِ وتخفيفِها؛ فالتَّشديدُ معناه: لا يَنضَمُّ بَعضُكم إلى بَعضٍ وتَزدَحِمون وَقتَ النَّظَرِ إليه تعالى؛ مِنَ المُضامَّةِ، وهي المُزاحَمةُ.

ومعنى التَّخفيفِ: لا يَنالُكم ضَيمٌ -ظُلمٌ- في رُؤيتِه؛ فيَراه بَعضُكم دونَ بَعضٍ! يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (101/3)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3601/9).

(234) رواه البخاري (554)، ومسلم (633) واللَّفظُ له.

# سُورَةُ ق

## الآيات (36–40)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36) إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37) وَلَقَدْ خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38) فَاصْبِرْ عَلَى مَا
يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40)

## غريب الكلمات:

**قَرْنٍ**: القَرْنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المُقتَرِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْرَ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثونَ، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقتِرانِ، وهو اجتِماعُ شيئَينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

**بَطْشًا**: أي: قُوَّةً، والبَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ.

**فَنَقَّبُوا**: أي: طافوا وسارُوا وتوَغَّلوا، وأصلُه مِنَ النَّقْبِ: وهو الطَّريقُ، كأنَّهم سَلَكوا كُلَّ طَريقٍ، أو مِن التَّنقُّبِ عن الأمرِ، بمعنى البحثِ عنه، وأصلُ (نقب): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ.

**مَحِيصٍ**: أي: مَعدِلٍ ومَهْرَبٍ ومَفَرٍّ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ.

**شَهِيدٌ**: أي: مُتفَهِّمٌ لِما يُخبَرُ به، شاهِدٌ له بقلبِه، غيرُ غافِلٍ عنه ولا ساهٍ، حاضِرٌ بفطنتِه، غيرُ غائبٍ، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلمٍ وإعلامٍ.

**لُغُوبٍ**: أي: ضَعفٍ وإعياءٍ، وأصلُ (لغب): يدُلُّ على ضَعفٍ.

## تفسير الآيات:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36).

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا.

أي: وكثيرًا مِن الأُمَمِ الماضيةِ أهلَكْنا مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم بالحَقِّ، والحالُ أنَّهم كانوا أقوى وأشدَّ منهم سَطوةً!

قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ [الإسراء: 17].

وقال سُبحانَه: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا [الروم: 9].

فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ.

أي: فساروا في الأرضِ، وطافوا وتوَغَّلوا فيها، وتَقلَّبوا في أسفارِهم، وسلَكوا كلَّ طريقٍ، فهل صرَفَهم ذلك عن العذابِ، وأنجاهم مِنَ الهَلاكِ؟ فأنتم أيضًا -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- لا مَفَرَّ لكم ولا مَحِيدَ إذا حَلَّ بكم الهَلاكُ، ولن تُغنِيَ عنكم قُوَّتُكم وشِدَّتُكم شيئًا!

كما قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا [مريم: 98].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ.

أي: إنَّ في ذلكَ لَتذكيرًا ومَوعِظةً وعِبرةً لِمَن كان له عَقلٌ يَعقِلُ به ويَتدبَّرُ، فيَتذكَّرُ ويَخافُ عذابَ اللهِ تعالى.

كما قال الله تبارك وتعالى: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا [يس: 69، 70].

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

أي: أو استَمَع لكلامِ اللهِ تعالى وأنصَتَ إلى آياتِه إنصاتًا تامًّا، فلا يَغيبُ عنه شَيءٌ، وهو حاضِرُ القَلبِ غَيرُ غافِلٍ ولا ساهٍ.(235)

---

(235) اختُلف في الشهيد على قولين: الأول: أنه من المشاهدة وهي الحضور.

الثاني: أنه شهيد من الشهادة، وفيه على هذه أقوال: الأول: أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله بما علمه من الكتب المنزلة.

الثاني: أنه شاهد على صحة ما معه من الإيقان.

ذكره ابنُ القيم (٣/ ١٥).

الثالث: أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة.

ذكره ابن القيم.

ورجَّح ابنُ القيم –مستندًا إلى اللغة– القول بأنه من المشاهدة، فقال: «والصواب القول الأول؛ فإن قوله: ﴿وهو شهيد﴾ جملة حالية؛ الواو فيها واو الحال، أي: ألقى السمع في هذه الحال، وهذا يقتضى أن يكون حال إلقائه السمع شهيدًا، وهذا هو من المشاهدة والحضور».

وانتقد (٣/ ١٥ – ١٦) القول بأنه من الشهادة مستندًا للعموم، وأحوال النزول، ودلالة العقل، واللغة، فقال: «ولو كان المراد به الشهادة في الآخرة أو الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنًى؛ إذ يصير الكلام: إنّ في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقي السمع حال كونه شاهدًا بما معه في التوراة أو حال كونه شاهدًا يوم القيامة.

ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38).

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ.

أي: ولقد أوجَدْنا السَّمَواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ.(236)

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ [السجدة: 4].

وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ.

أي: وما أصابَنا مِن جرَّاءِ ذلك أيُّ تَعَبٍ أو إعياءٍ؛ لكَمالِ القُدرةِ، وتَمامِ القُوَّةِ.

---

وأيضًا فالآية عامة في كلّ مَن له قلب وألقى السمع فكيف يُدّعى تخصيصها بمؤمني أهل الكتاب الذين عندهم شهادة مِن كتبهم على صفة النبي؟ وأيضًا فالسورة مكية والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب، ولا سيما مثل هذا الخطاب الذي علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي وإلقاء السمع، فكيف يقال: هي في أهل الكتاب؟! فإن قيل: المختص بهم قوله: ﴿وهو شهيد﴾ فهذا أفسد وأفسد؛ لأن قوله: ﴿وهو شهيد﴾ يرجع الضمير فيه إلى جملة مَن تقدم، وهو مَن له قلب أو ألقى السمع، فكيف يُدّعى عوده الى شيء غايته أن يكون بعض المذكور أولًا، ولا دلالة في اللفظ عليه.

وأيضًا فإن المشهود به محذوف، ولا دلالة في اللفظ عليه، فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به؛ إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه، وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور، فإنه لايقتضى مفعولًا مشهودًا به، فيتم الكلام بذكره وحده».

(236) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٦ – ٥٧) أن الأحاديث تظاهرت بأن خلق الأشياء كان يوم الأحد، وفي كتاب مسلم وفي الدلائل أن ذلك كان يوم السبت، ثم علَّق بقوله: «وعلى كل قولٍ فأجمعوا على أن آدم – عليه السلام – خلق يوم الجمعة، فمن قال: إن البداءة يوم السبت جعل خلْق آدم – عليه السلام – كخلق بَنِيه لا يُعدّ مع الجملة الأولى، وجعل اليوم الذي كملت المخلوقات عنده يوم الجمعة».

قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الأحقاف: 33].

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39).

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ.

أي: فاصبِرْ –يا محمَّدُ– على ما يَقولُه الكُفَّارُ مِن الأَذَى والسُّوءِ.

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ.

أي: ونَزِّهْ ربَّك –يا محمَّدُ– قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها تنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ محبَّةً له وتعظيمًا، وصَلِّ له.(237)

كما قال تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [الحجر: 97، 98].

---

(237) اختُلف في التسبيح الذي أمر به من الليل على أقوال: الأول: أنه عني به: صلاة العتمة.

الثاني: المغرب والعشاء.

الثالث: الصلاة بالليل في أي وقت صلى.

ورجَّح ابنُ جرير (٢١/ ٤٦٨) –مستندًا إلى ظاهر اللفظ– القول الثالث الذي قاله مجاهد، فقال: «وذلك أنّ الله –جل ثناؤه– قال: ﴿ومن الليل فسبحه﴾ فلم يحدّ وقتًا مِن الليل دون وقت، وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل».

ثم قال: «وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا فهو بأن يكون أمرًا بصلاة المغرب والعشاء أشبه منه بأن يكون أمرًا بصلاة العتمة؛ لأنهما يُصلّيان ليلًا».

وقال سُبحانَه: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى [طه: 130].

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ - ﷺ - فنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةَ - يعني البَدر-، فقال: إنَّكم ستَرَونَ ربَّكم كما تَرَونَ هذا القَمَرَ لا تُضامونَ في رؤيتِه، فإنِ استطعتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غروبِها فافعَلوا. ثمَّ قرأ: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ)).[238]

وفي روايةٍ: عن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ الله عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ - ﷺ - إذْ نَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةَ البَدرِ، فقال: أمَا إنَّكم ستَرَونَ رَبَّكم كما تَرَونَ هذا، لا تُضامُّونَ - أو لا تُضاهونَ [239]- في رؤيتِه، فإنِ استطَعْتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبلَ غُروبِها، فافعَلوا. ثمَّ قال: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا [طه: 130])).[240]

---

(238) أخرجه البخاريُّ (554) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (633).

(239) لا تُضاهُونَ: مِنَ المُضاهاةِ، أي: لا يَشتَبِهُ عليكم ولا تَرتابونَ.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (1/506).

(240) رواه البخاريُّ (573) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (633).

وعن أبي مُوسى الأشعريّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ –قال: ((مَن صَلَّى البَرْدَيْنِ[241] دخَلَ الجنَّةَ)).[242]

## وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (40).

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ.

أي: ومِنْ بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ فسبِّحِ اللهَ تعالى مُنزِّهًا له عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، وصَلِّ له.

كما قال تعالى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا [الإنسان: 26].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((مَن تَعارَّ[243] مِنَ اللَّيلِ فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، الحَمدُ للهِ، وسُبحانَ اللهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، أو دعا؛ استُجِيبَ له، فإنْ توضَّأَ وصَلَّى قُبِلَت صَلاتُه)).[244]

وَأَدْبَارَ السُّجُودِ.

---

(241) البَرْدَين: أي: الفَجْرَ والعَصرَ؛ لِبَردِ الهواءِ فيهما بالنِّسبةِ إلى وَسَطِ النَّهارِ، ولِكَونِهما في طَرَفَيِ النَّهارِ.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (1/506)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (2/540).

(242) رواه البخاري (574)، ومسلم (635).

(243) تعارَّ: أي: انتَبَه.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (2/329).

(244) رواه البخاري (1154).

أي: وسبِّحْ ربَّك –يا مُحمَّدُ– عَقِبَ الصَّلَواتِ.(245)

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ – ﷺ – قال: ((مَن سَبَّح اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وثلاثين، وحَمِدَ اللهَ ثلاثًا وثلاثين، وكَبَّرَ اللهَ ثلاثًا وثلاثين، فتلك تِسعةٌ وتِسعونَ، وقال تمامَ المِئةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ– غُفِرَت خطاياه وإن كانت مِثْلَ زَبَدِ البَحرِ)).(246)

---

(245) اختُلف في معنى التسبيح الذي أمر الله نبيّه أن يسبّحه أدبار السجود على أقوال: الأول: أنه التسبيح في أدبار الصلوات.
الثاني: أنها النوافل بعد المفروضات.
الثالث: أنها ركعتان بعد المغرب.
ورجَّح ابن جرير (٢١/ ٤٧٤) –مستندًا إلى الإجماع– القول الأخير الذي قاله علي، وابن عباس، والشعبي، ومجاهد، والحسن بن علي، والحسن البصري، وغيرهم، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قولُ مَن قال: هما الركعتان بعد المغرب؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك».
ثم قال: «ولولا ما ذكرتُ من إجماعها عليه لرأيتُ أن القول في ذلك ما قاله ابن زيد [يعني: القول الثاني]؛ لأنّ الله –جل ثناؤه– لم يخصص بذلك صلاة دون صلاة، بل عمّ أدبار الصلوات كلها، فقال: ﴿وأدبار السجود﴾، ولم تقم بأنه معني به: دُبر صلاة دون صلاة، حجة يجب التسليم لها من خبر ولا عقل».
وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٥٧) على القول الأول بقوله: «كأنه رُوعي إدبار صلاة النهار كما روعي أدبار النجوم في صلاة الليل، فقيل: هي الركعتان مع الفجر».
(246) رواه مسلم (597).

# سُورةُ ق

## الآيات (41–45)

وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45)

## غريب الكلمات:

سِرَاعًا: جَمعُ سَرِيعٍ، أي: مُسرِعِينَ في الخُروجِ إلى محَلِّ الحِسابِ، وأصلُ (سرع): يدُلُّ على خِلافِ البُطءِ.

بِجَبَّارٍ: أي: بمُسَلَّطٍ تُجبِرُهم على الإسلامِ؛ مِن: جَبَرَه على الأمرِ، بمعنى: أكرَهَه، وأصلُ (جبر): يدُلُّ على العَظَمةِ والعُلُوِّ.

## تفسير الآيات:

وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (41).

أي: واستَمِعْ –يا محمَّدُ– حينَ يُنادي الملَكُ الموكَّلُ بالصُّوْرِ النَّاسَ مِن مَوضِعٍ قَريبٍ.(247)

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42).

يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ.

أي: وذلك يومَ يَسمَعُ الخَلقُ صَيحةَ البَعثِ بالحَقِّ.

ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ.

أي: ذلك اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَخرُجُ فيه النَّاسُ أحياءً مِن قُبورِهم للحَشرِ والحِسابِ.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43).

---

(247) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٨) أن قوله تعالى: ﴿واستمع﴾ بمنزلة: «وانتظر».
وذلك أن محمدًا – ﷺ – لم يؤمر بأن يستمع في يوم النداء؛ لأن كل مَن فيه يستمع، وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار، وقيل لمحمد – ﷺ –: تحسَّس وتسمّع هذا اليوم وارتقبه؛ فإن فيه تبيين صحة ما قلته.
وهذا كما تقول لمن تعده بورود فتح: استمع كذا وكذا، أي: كن منتظرًا له مستمعًا.
ثم علّق بقوله: «وعلى هذا فنصب ﴿يوم﴾ إنما هو على المفعول الصريح».

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ.

أي: إنَّا نحن نُحيي الموتَى، ونُميتُ الأحياءَ بقُدرتِنا.

كما قال تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الحديد: 2].

وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ.

أي: وإلينا مَرجِعُ جَميعِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فنُحاسِبُهم ونُجازيهم بحَسَبِ أعمالِهم.

كما قال تعالى: هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [يونس: 56].

وقال سُبحانَه: إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى [العلق: 8].

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (44).

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا.

أي: يومَ تتصَدَّعُ الأرضُ عن الأمواتِ، فيَخرُجونَ مِن قُبورِهم أحياءً، وهم مُسرِعونَ إلى أرضِ المَحشَرِ.

كما قال الله سبحانه وتعالى: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ [المعارج: 43].

وقال تبارك وتعالى: وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ [الانفطار: 4].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((النَّاسُ يَصعَقونَ[248] يومَ القيامةِ، فأكونُ أوَّلَ مَن تنشَقُّ عنه الأرضُ)).[249]

ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ.

أي: جَمْعُ النَّاسِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ شَأْنٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ علينا، لا تَعَبَ فيه ولا مَشقَّةَ.

كما قال تعالى: مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ [لقمان: 28].

وقال سُبحانَه: إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ [يس: 53].

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45).

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ.

أي: نحن أعلَمُ بما يَقولُه الكُفَّارُ مِنَ الكَذِبِ والافتراءِ على اللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه، والإنكارِ لقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه.

---

(248) يَصْعَقونَ: مِنْ صَعِقَ الرَّجُلُ: إذا أصابَه فَزَعٌ فأُغمِيَ عليه، ورُبَّما مات منه.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (4/232)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (9/3644).
(249) رواه البخاري (2412).

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ.

أي: وما أنت بمُسَلَّطٍ عليهم –يا محمَّدُ– فتُجبِرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، وتَقهَرَهم على الانقيادِ إليه، وإنَّما عليك البَلاغُ.(250)

كما قال الله تبارك وتعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: 272].

وقال سُبحانَه: أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [يونس: 99، 100].

وقال الله عزَّ وجلَّ: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ [الغاشية: 21، 22].

فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ.

أي: فذَكِّرْ –يا محمَّدُ– بهذا القُرآنِ مَن يخافُ عذابي الَّذي توعَّدْتُ به مَن عَصاني.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ [يونس: 57].

---

(250) ذكر ابنُ كثير (١٣/ ٢٠٦) أن قوله: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ معناه: ولســـت بالذي تُجبِر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك ما كُلّفت به.

ثم ســاق هذا القول، ورجَّح ما ذكره، وانتقد قول مجاهد، وقتادة، ومقاتل مســتندًا للغة، فقال: «والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جبارًا عليهم، وإنما قال: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان، إنما أنت مبلّغ».

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ [يس: 11].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا [النازعات: 45].

# تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ

## ويَليه المجلَّدُ الخامِسُ والثَّلاثونَ، وأوَّله: تفسير سُورة الذَّارياتِ

# الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتُرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

# المغني في التفسير

## المُحرِّرُ الجامعُ لِتفاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ


د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا